تطور الأداء الخطابى

بين عصر صدر الإسلام وبنى أمية

الدكتورة مى يوسف خليف



دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
(القاهرة)


منتدى سور الأزبكية



تطور الأداء الخطابى
بين
عصر صدر الإسلام وبنى أمية

دكتورة

مى يوسف خليف

كلية الآداب - جامعة القاهرة

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

(القاهرة)

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

المطابع ١٢ ش نوبار لاظوغلي ت: ٣٥٤٢٠٧٩

المكتبة { ١ ش كامل صدقي الفجالة ت: ٥٩٠٢١٠٧
٣ ش كامل صدقي الفجالة ت: ٥٩١٧٩٥٩ }

تطور الأداء الخطابى
بين
عصر صدر الإسلام وبنى أمية

مقدمة

شغلت الدراسات الأدبية والنقدية كثيراً بمنطقة الدرس الفنى لحركة الشعر ، وتعددت حوله صيغ الحوار والجدل ، وتنوعت الاتجاهات، واختلفت المدارس حول فهمه وتحليله وتقويمه ، مما أثرى الساحة الأدبية برصيد متميز من المصنفات المختلفة ؛ تلك التى ظلت كاشفة عن تراثنا الإبداعى فى هذا المجال بخاصة . وشغلت بعض الدراسات بالفن النثرى تأريخاً وتحليلاً ، وإن ظلت قليلة إذا قيست بما أُلف حول الشعر ، مما يدفع الباحث إلى ضرورة تأمل أسباب هذه الندرة ، ومحاولة إعادة طرح المقولات النقدية حول فن النثر باعتباره قريناً للشعر ، وموازياً لمسيرته فى معظم اتجاهاته ومجالاته ، وشريكاً له فى كثير من مدارسه ومشكلاته .

من هنا كانت فكرة هذا الدرس التحليلى قصداً إلى محاولة استكشاف بعض من مساحات الإبداع الخطابى ضمن ساحة نثرنا الفنى القديم ، سواء ما طُرق منه فى دراسات سابقة ، أو ما ظل منه فى منطقة الظل مما يجعله فى حاجة إلى ضرورة الظهور والانجلاء. وتعتمد فكرة هذا الدرس - بالدرجة الأولى - على قصد إلى التحليل الفنى ، والتحرك من خلال النص ، والتوقف عند الطبيعة النوعية للعمل الخطابى ، وكأنها تضع فى الاعتبار - أساساً - أن التأريخ لهذا الفن لن يأتى بجديد ؛ ذلك أن الخلفية الفكرية والاجتماعية والحضارية للخطيب تظل بمثابة نموذج متكرر لدى الشاعر ، ومن ثم تبدو الدراسة التاريخية أقرب إلى لغة التكرار منها إلى الإضافة والتجديد .

وانطلاقاً من واقع هذا التصور رأيت تجاوز مشكلة التأريخ تحاشياً للتكرار والإطالة ، وآثرت التوقف عند تحليل النص الخطابى عبر مساقاته المتنوعة على المستويات النفسية والحضارية والفنية ، وعبر أطره الواسعة بين عصرى صدر الإسلام وبنى أمية قصداً - بذلك - إلى استجلاء ما توارى من قيم فنية ظل هذا الإبداع محتفظاً بها ، وظلت هى نفسها كامنة فيه ، أو التأكيد على ما بدا منها على استحياء - أو إيجاز - عبر دراسات أخرى سبقتنى إلى اقتحام هذا المجال .

وإذا كان لفن الشعر أساطينه وجمهوره ودارسوه ، وكذلك كان النثر الفنى ، فتظل هذه الدراسة بمثابة طموح علمى يسعى إلى الاعتداد باعتبار الفن الخطابى نموذجاً طيباً من نماذج الإبداع يجدر بنا أن نعيد قراءته وتحليله مراراً ، لعله يكشف - بدوره - عن إضافات جديدة قد تثرى محاور الإبداع الأخرى فى تراثنا الأدبى القديم، ولعله يتمخض- أيضاً - عن تناول خاص أو معالجة جديدة تختلف - ولو قليلاً - عما رصد بين أيدينا من صور التأريخ للفن الخطابى على نحو ما أبرزه الدكتور شوقى ضيف فى دراستيه حول « العصر الإسلامى » و « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ، فلعل هذا الدرس يطمح إلى تناول جديد لأنماط الموقف الخطابى من واقع قراءات نصية تستهدف - بدايةً - تتبعه كنشاط ثقافى معبر عن اتجاهات ومثل ، ومواقف وتأصيل ، وقضايا ومشكلات تستحق معاودة النظر والتأمل والمراجعة من خلال إعادة قراءته .

فإن أضاف الحوار هنا جديداً يكون قد قارب الهدف من دوافع إدارته ، وإلا فبحسبه هذا اللمح إلى إعادة فتح باب التحليل النصى للنموذج الخطابى القديم عبر رحلته المتميزة بين الإسلامية والأموية .

والله أسأل أن يهيئ لنا من أمرنا رشدا

وأن يهدينا - سبحانه - إلى سواء السبيل .

مىّ يوسف خليف

القاهرة

تمهيد

حول الإطار والمرجعية

تتنوع صور الأداء اللغوى ، وتتعدد أشكالها ، وتتباين مستوياتها طبقاً للوظائف المنوطة بكل منها ، فلكل منا لغته الخاصة التى تميزه عن الآخر ، وهو يشترك - فى نفس الوقت - فى واقع المفهوم العام للغة ، ويخضع لسياقها الاجتماعى ، باعتباره فرداً فى مجتمع ما ، وابناً له ، يتفاعل معه ، ويتحاور من خلاله .

وإذا كان البناء الثقافى - فى أى مجتمع - يحتوى على كل ما يفكر فيه الإنسان أو حتى يتخيله أو يحلم به أو يبدعه ، فإن صيغ الأداء يمكنها أن تسير فى اتجاهين متوازيين موزعة بين الأنساق العملية التى ترتبط - أول ما ترتبط - بخلاصة إفراز الفكر البشرى ، وبين المساقات الأدبية التى تعكس ما يطرحه الوجدان الإنسانى ، وهو ما يبتغى توصيله إلى الآخر عبر واحد من مستويات الصياغة الجمالية .

وتبدأ معالم الأسلوب الأدبى فى الظهور والتبلور منذ اعتباره إبداعاً ذا كيان متميز ، له مقوماته ووسائله ، وله ماهيته ووظائفه ، وله أيضاً ملابساته الخاصة ومساقاته المتنوعة ؛ ذلك أن أى عمل أدبى لابد أن يكون ذا صلة مؤكدة بتجربة بعينها إن لم يكن وليداً شرعياً لها ، يعكس أبعادها ، ويحكى كل ما يحيط بها ، وما يعيشه صاحبها ، فهو يقوم - بهذا القياس - على منطق تأثر الأديب بإحدى شرائح الواقع الذى يتجادل معه تأثراً وتأثيراً ، ثم تصويرها جمالياً بما يكسبها أبعاداً توصيلية تجعلها أكثر رحابة وأعمق إنسانية فى دلالتها ، وبذا تحكمه نظرية التوصيل [1] حين ينجح الأديب فى استقطاب جمهوره ليعيش معه تجربته للمرة الثانية وكأنه يتسع بالموقف الأدبى ليتجاوز حدود « الأنا » إلى رحابة الـ « نحن » فى صورتها الإنسانية العميقة . والإبداع الأدبى من هذا المنطلق - وبهذا القياس - إنما يصدر عن خيال الأديب ، وتؤثر فيه كل ملكاته ، وتنعكس من خلاله كل إمكاناته الفكرية وطاقاته الوجدانية ، فهو يجمع بين فكره وشعوره ، وهو يصدر عن ثقافة محددة إلى جانب موهبته الفردية الخاصة،

تلك التى تجعل لعمله مذاقاً خاصاً يجعله دالاً على صاحبه ، معبراً عن موقفه ، كاشفاً عن حدود جدله مع واقعه .

والعمل الأدبى بهذا المعنى - شعره ونثره - يعد اختيار إيحابياً مسئولاً لإحدى شرائح الحياة أو أحد موضوعاتها ليكون محوراً للعمل ، وحقلاً خصباً للإبداع ، وعندئذ يستعين المبدع بكل ملكاته وأدواته فى صياغة العمل جمالياً [٢].

وتأتى الصياغة الجمالية - بهذا المعنى ومن خلال هذا المفهوم - بهدف نقل التجربة وتوصيلها من ناحية ، وإفراغ انفعالات الأديب تجاه موضوعه من ناحية أخرى ، وهو ما يتطلب من الجمهور أو قارئ النص صوراً من الأناة والروية فى تحليله من كل جوانبه ومدلولاته ، دون اكتفاء بالوقوف عند إحدى الزوايا وإلا اتهم بالقصور النقدى - أو قصور التلقى - حين يكتفى بالبعد الأحادى للعمل ، إذ لابد أن يحلله من خلال جوهر علاقاته المتشابكة المعقدة بمبدعه وبموضوعه وبناقده فى آن واحد ، إلى جانب التحليل الداخلى الذى يتكشف من خلاله طبائع العلاقات اللغوية والتصويرية التى تسوده وتحكمه وتهيمن عليه . ومن هنا يبدو الأسلوب الأدبى - فى أدق خصائصه - أسلوباً تصويرياً يتجاوز مرحلة الإفهام إلى مرحلة التذوق ، ولا يكتفى بالنقل الحرفى أو المرآوى للأشياء، بقدر ما يستهدف تصويرها - جمالياً - فى أنساق خاصة تعتمد إلى حد كبير - على المجاز ، وتصدر - فى معظم الأحيان - عن الخيال ، ويتوقف الأديب طويلاً أمام مفردات اللغة لينتقى منها ومن تراكيبها ما يمليه عليه الحدث ، وما تتطلبه منه طبيعة التجربة .

وبذا تتكشف أولى ملامح الأسلوب الأدبى فى كونه أسلوباً مجازياً تصويرياً يتجاوز إطار الحقائق ، ومن ثم فهو يجمع مستويات وطاقات انفعالية وشعورية وفكرية تبدو متداخلة متراكبة بصورة تدعو إلى معاودة القراءة مراراً للوقوف على ما وراء النص من معنى المعنى [٣] أو الوصول إلى واقع الرؤية التحليلية الكاملة له باعتباره منتجاً أدبياً له خصائصه وقسماته المميزة له .

ومن هنا - أيضاً - تأتى لغة الأسلوب الأدبى - فى معظمها - لغة « تركيبية » فى مقابل « تحليلية » اللغة العلمية [٤] ، ولا شك أن اللغة « التركيبية » تظل فى حاجة إلى جهد نقدى خاص فى استقراء معطياتها ، وكشف ما تنبئ به تفاصيلها ، واستخلاص كل ما فيها من طاقات إيحائية ، وشحنات انفعالية ، وأبعاد خيالية تصويرية.

وإلى جانب المستوى التصويرى فى الأسلوب الأدبى تلقانا الزينة اللفظية ومعها دقة الانتقاء للكلمات بما يتسق مع واقع التجارب الفردية من ناحية ، ويعكس مستوى الثقافة وتراكم مواد الفكر لديه من ناحية أخرى .

كما يتسم الأسلوب الأدبى بالمرونة وقابلية التحول وفقاً للنسق الذى يسير فى اتجاهه ، وطبيعة النمط الذى يصاغ فيه ، إذ ربما وجدنا من تضاد الألفاظ وشحناتها الانفعالية ما تبدو ألفاظ غيرها عاجزة عن تصويره إلا أن يتم ذلك فى سياق تصويرى له تميزه وخصوصيته ، وهو ما يعد من أدق قسمات الأساليب الأدبية فى أفضل مستوياتها الوظيفية[٥] .

وفى دراسة النص النثرى بخاصة يمكن تأمل طبيعة الخلفية الثقافية لكاتبه من واقع معطيات عصره ، ومقومات بيئته ، ليخرج علينا بنفس الأبعاد التى يلتقى فيها مع الشاعر ، ويبقى لكل منهما أساليبه التصويرية أو التقريرية التى تحكم عملية « التوصيل» أو تنظّر لعملية الأداء والتلقى ، « وإذن فالنثر ليس لغة التخاطب ولا الأحاديث العادية والذى لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هى عاطفة أو شعور ، بل من حيث هى صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير »[٦] وعلى هذه الأسس تعددت صور الفن القولى وتنوعت صيغ الأداء الأسلوبى بين التقرير والتصوير ، أو التنميق البديعى ، أو القصد إلى الانتقاء وتجاوز منطقة الارتجال والبديهة ، وهو ما يجعل الأسلوب الأدبى فى معظم مجالاته يختلف عن الأسلوب العلمى فى معظم تقنياته وآلياته .

وفى مجال الدرس الأدبى - بعامة - نتوقف عند حدود الإبداع والتلقى معاً ، وهو ما يدفع - بالضرورة - إلى تحليل مقوماته من خلال الوقوف المبدئى عند ماهية العمل موضوع الإبداع أو طبيعته النوعية ثم الأداة التى يتعامل من خلالها المبدع معالجه لموضوعه وجدلاً معه ، وحواراً من خلاله ، ثم الوظيفة أو الوظائف المنوطة بالعمل على اختلاف مستوياتها .

ويدهى لدراس النص الأدبى أن يمتلك الأدوات التى تؤهله لأن يتفهم مقومات المادة الإبداعية وصولاً إلى كل مكنوناتها وكشفاً عن كل خفاياها ، وتجلية لكل المعانى المستورة عبر صورها .

وفى سياق تحديدنا لماهية العمل يأتى تعرفنا على الأنواع الأدبية المختلفة وما

بينها من مشابه أو سمات فارقة ، تلك الأنواع التى تمتد - بدورها - إلى فنون منظومة وأخرى منثورة ، وفى أى منها نجد أنفسنا أمام فن « الكلمة » أو فن « القول » وإن تعددت صوره ، وتنوعت مجالاته ، واتسعت حقوله المعرفية ودلالاته .

ويبدو ضرورياً للدارس - من هذا المنطلق وبهذا القياس - أن يحاول استكشاف ذلك التمايز القائم بين تلك الأنواع الأدبية خاصة إذا ما توحدت بينها الأداة ، إذ لابد أن يستقر فى ذهنه ذلك المعلم الواضح لكل نوع على حدة ، على غرار ما تبدعه ذاكرة الشاعر وتفيض به مخيلته من فنون منظومة عرفت سبلها عبر تتابع حركة التاريخ الأدبى، مع تمايز مرحلى لكل منها ، بدءاً من الإيقاع الذاتى للشعر - مثلاً - إلى الإيقاع التعليمى إلى الشعر المسرحى فى شكليه المتمايزين بين الدرامى والكوميدى ، إلى الشعر القصصى القديم ، وأخيراً إلى النمط الملحمى الذى افتقده أدبنا العربى بينما ضرب فيه اليونان بسهم وافر لمع منه جانب فى ملاحم « هوميروس » [الإلياذة والأوديسا] والرومان من خلال إنيادة فرجيل ، والفرس من خلال شهنامة الفردوسى ، والهنود من خلال « رامانيا » فالميكى (٧).

وفى موازاة هذا التنوع فى ساحات الإبداع الشعرى ظهر تنوع آخر فى مساقات الإبداع النثرى ، فكان للكلمة المنثورة دورها المتميز ، ومجالاتها الواسعة التى سارت فيها ، وعرفت سبلها عبر فنون الإبداع المختلفة ، وهو ما يدفعنا - بدايةً - إلى تحديد واضح للكلمة المنثورة حين ترقى إلى مستوى الفنون فتصبح فناً يستوعب مساحة متميزة من مساحات الإبداع .

وتظل للكلمة كفن نثرى خصوصية أدائها بدءاً من صورتها التحليلية حين يعمد صاحبها إلى الإطالة أو الإطناب أو الإسهاب أو الاستطراد أو الاستقراء أو الاستقصاء ، فإذا هو يعرض ما يرمى إليه فى عبارات متنوعة ، وجمل متوالية ، وألفاظ منتقاة تصويراً وصوتاً ، وهو ما يمكن للقارئ - أو الجمهور - أن يوجزه ، وإن لم ينف هذا الإيجاز متعة التلقى من خلال تأمل جماليات كل مفردة وجملة إلى جانب تتبع أدائها المتميز على المستويين الإبداعى والوظيفى معاً .

صحيح أنه من الشائع أن الشعر يظل تصويراً انفعالياً مرتبطاً بالتجارب ، وأن

النثر أقرب إلى مخاطبة العقول والإقناع بالقضايا ، ولكن الفصل بين الانفعال والفكر يبدو أمراً عسيراً يحتاج معاودة نظراً ومراجعة طالما التقينا فى حقل الإبداع كمجال متميز من مجالات المعارف الإنسانية والرؤى المتمايزة .

وما يقال عن مصادر ثقافة الشاعر القديم موزعة بين أحادية مصادرها وبين تعقدها، يطرح مثله فى الدرس النثرى منذ بدت ثقافة الناثر أحادية فى عصر الجاهلية ، إلى ما وقع لها من ازدواجية متميزة مع عصر صدر الإسلام ، إلى ما ظهر من تعقيد بعد ذلك فى حركة الفكر عبر عصر بنى أمية بين جدول جاهلى موروث ، وآخر إسلامى بدا موروثاً أيضاً بقياس العصر ذاته ، إلى ثالث جديد يعد وافداً كنتاج لتفاعل الثقافة العربية مع ثقافات الأمم المفتوحة ، ومع ما استوعبته من مؤثرات حضارية وسياسية ، وصراعات داخلية من ناحية أخرى .

ومن هنا أيضاً تأتى دراستنا للعصور الأدبية لفن الكلمة المنثورة متسقة مع درسنا لعصور الشعر ، فهى تكمل معه قصة الصراع الإنسانى بكل صوره وأطرافه وأشكاله ومستوياته ، وهى تكشف - أيضاً - جوانب شخصية المبدع فى كل فن من فنون القول على حدة ، وهو ما يدفعنا إلى معاودة القول حول تقارب المناهج طبقاً لفكرة البناء الأساسى والبنى العلوية من حتمية ذلك التوافق والانسجام والانعكاس الذى يتبدى من واقع التحول فى كل الأبنية بقياس واحد ، لتترك آثارها على نفس المستوى ، ومن واقع نفس الدرجة فى حركة الفكر والإبداع ، تسليماً ببديهية أن الأدب سيظل جزءاً لا يتجزأ من الفكر الإنسانى يتطور بتطور هذا الفكر وينتكس من واقع انتكاسته .

ومن هذا المنظور كانت بساطة المادة الإبداعية أو تعقيدها يسير فى اتجاهات متقاربة بين واقع الأنواع الأدبية نظماً كانت أو نثراً ، وهو ماتكشفه لنا هذه القسمة التى نراها بارزة فى فنون النثر منذ عصر الجاهلية والتى يمكن حصرها فيما درج عليه أبناء ذلك العصر القديم من صياغات للحكم والأمثال الموجزة التى تعكس خلاصة تجاربهم فى إطار حياتهم البسيطة ، فكانت الحكمة وكذلك كان المثل بمثابة وعاء فنى بسيط يستوعب خلاصة معارف العربى ، على غرار ما كان من واقع القصيدة الجاهلية والمقطوعة التى حمّلها نفس التجارب ، وأذاع من خلالها ذوات المعارف .

وبذلك انقسم النثر الجاهلى إلى هذه الصور الموجزة الواضحة والتى كانت تستكمل بما وقع بين القوم من صور الخطابة أو المنافرات أو الوصايا التى جاءت أقرب فى مضمونها من فن الخطابة وكذلك كانت فى أسلوبها وإن شابها قدر من الهدوء والاسترسال [٨]، جاءت كل هذه الأنواع جامعة لصور تطور الحركة الأدبية التى بدا منها الفن الخطابى قادراً على رصد إيقاعات الحياة ، ومن ثم كان توزعه وتطوره بين أنماط دينية وأخرى سياسية وثالثة حفلية [٩].

وفى مجمل حركة هذا التطور ما يستحق التأمل والتحليل من واقع استقراء بعض من نتاج تلك العصور المبكرة فى نثرنا القديم .

هوامش التمهيد

(١) تراجع قسمات هذه النظرية عند ريتشاردز فى مبادئ النقد الأدبى .

(٢) هى فكرة الجاحظ التى عرضها فى بيانه وتبيينه حول المعانى المطروحة فى الطريق ، وهى أيضاً فكرة الأستاذ العقاد فى مقدمة ديوانه « عابر سبيل ».

(٣) كأننا نسعى هنا إلى مستوى القراءة الثانية للنص الأدبى وتجاوز مرحلة القراءة الأولى بالعمد إلى تفسيره أولاً ثم تقويمه على منهج الدراسات التى أخذت بهذا المنحى كماصنع الدكتور مصطفى ناصف فى « قراءة ثانية لأدبنا القديم » وكما اتجه صلاح عبد الصبور فى « قراءة جديدة لشعرنا القديم » إلى ما ظهر لدى غيرهما من دراسات تطبيقية تشير فى نفس الاتجاه .

(٤) ينظر « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » للدكتور زكى مبارك فى تناول هذه الظاهرة اللغوية بين النمطين التركيبى والتحليلى بين فنى الشعر والنثر .

(٥) تطرح هنا نظرية اللغة الشاعرة للأستاذ العقاد حين يتأمل كل معجم اللغة ليراه شاعرياً بطبعه وحسب إمكانات المبدع فى صناعة التراكيب ومزيج الصور ، وهى الفكرة المطروحة عند عبد القاهر الجرجانى فى « أسرار البلاغة » حول ما أسماه بتوخى معانى النحو مما وضعه أساساً لإحكام التصوير وبنية السياق التعبيرى .

(٦) من حديث الشعر والنثر (د . طه حسين) ص ٢٨.

(٧) يراجع فى استجلاء جوانب هذه الظاهرة ما عرض له الدكتور زكى المحاسنى من اعتبار شعر أيام العرب منظومة حربية ملحمية دون وجود الملحمة كنوع أدبى صريح ضمن كتابه « شعر الحرب فى أدب العرب ».

(٨) الأساليب الأدبية فى النثر العربى القديم (د . كمال اليازجى) ص ١٦.

(٩) الفن ومذاهبه فى النثر العربى . (د . شوقى ضيف).



الفصــــل الأول

تطور الفن الخطابى مع عصر المبعث

المقــومـات - الأصــول

تــوطــئة

عرفنا الخطابة نوعاً نثرياً فنياً منذ الجاهلية ، منذ استعان بها الفصحاء والبلغاء في إظهار مهاراتهم اللغوية وملكاتهم الخاصة ، وفي توجيه النصح والإرشاد لأقوامهم وذويهم على نحو ما أشيع عن مكانة قس بن ساعدة الإيادي ، وما برز من دوره في الخطابة في سوق « عكاظ » وما انتشر من تميزه بين أبناء الجاهلية من واقع تفوق حسه الديني عليهم، وكان يتوقع أن يُبعث نبيٌ ليصحح معتقدات الجاهلية ، فكان عَلَماً من حكماء عصره ، وهو القائل فيهم خطبته المشهورة : « أيها الناس : اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونها ساج ، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة ، إن في السماء لخبرا ، وأن في الأرض لعبرا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضُوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ يقسم قس قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى له ، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرا ».

ويروى أن قسا أنشأ بعد ذلك يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إليّ ولامن الباقين غابر

أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر.(١)

ولسنا هنا بصدد تحليل خطبة قس إلا أن تكون مجرد مؤشر من مؤشرات توجهات الخطيب الجاهلي النابغ ، خاصة حين تتميز خطابته فتصدر عن حكيم واعٍ ، أو خبير حنكته الأيام، أو زاهد في متاع الدنيا وزخرفها حتى قيل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعجب بخطابته .

وعلى نحو ما عرف من نبوغ قس بن ساعدة حتى قيل فى مضرب المثل به « أخطب من قس» كان ذيوع هذا النبوغ خارج حدود قبيلته ، بل خارج القبائل العربية كلها إذا أخذنا برواية صاحب الأمالى (٢) . حول ما وقع من قس بن ساعدة حين وفد على قيصر يزوره فقال له قيصر يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قُضى به الحقوق ».

وكأن الخطيب هنا يصدر عن موقفه كحكيم فى قومه وخارج حدودهم يجمع بين التعقل والبديهة ، ويعكس من صور الرزانة والفهم ما تعكسه هذه المحاورة القيصرية التى جرت معه .

وعلى هذا النحو أيضاً كان ما عرف عن أكثم بن صيفى يوم أن قام فقال : « إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركبَ صعب . والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء ، المرء يعجَز لا المحالة ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغَك المحل ، حسبك من شر سماعُه ، الصمت حكم وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدَّد نفّر ، ومن تراخى تألّف ».

وتستكمل الرواية بما كان من تعجب كسرى من أكثم ثم قال - أى كسرى - : ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك ! لولا وضعُك كلامك فى غير موضعه . قال أكثم : الصدق ينبئ عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكثم : رُبَّ قَولٍ أنفذ من صَولْ » (٣). ولا يخفى هنا أن خطبة الرجل كانت جمعاً لرصيد الحكم التى رآها صالحة لأن تكون فلسفة حياة وخلاصة تجارب ومعايشة للناس من حوله ؛ وهو الأمر الذى يمتد ليشمل عديداً من أسماء خطباء الجاهلية على نحو ما عرف عن مرثد الخير وعامر بن الظرب العدوانى ، وقيس بن خفاف البرجمى ، ومهلهل بن ربيعة ، وعلقمة بن علاثة ، وحاجب بن زرارة ، والحارث بن عباد ، وعمرو بن الشريد وعامر بن

الطفيل العامرى ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدى والحارث بن ظالم المهدى ، ولبيد بن ربيعة ، وهاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم وغيرهم [٤].

ولا يزيد هذا التوقف عند الخطابة الجاهلية إلا باعتبار كشف هذا التداخل بين المواد المنثورة من خطب وحكم ومواعظ وأمثال ووصايا دلت كثرتها على تمكن القوم من ناصية فن القول ووجهته عبر تلك المستويات الحياتية إلى جانب ما عرف من سجع الكهان وسجع الكاهنات [٥] ، وهو ما شهد عصر صدر الإسلام له تحولاً واضحاً على مستوى الأداء والتوظيف ، وعلى مستوى الخطيب وجمهوره أيضاً .

وربما اتضح لنا من رصيد الأسماء كثرتها ، وتداخل بعضها مع أسماء الشعراء فكانت الفصاحة قاسماً مشتركاً بين أبناء العصر ، وكان الشاعر وقتئذ فارس الكلمة منذ أدرك خطرها على نحو ما عرضه اعتراف امرئ القيس بأن « جرح اللسان كجرح اليد » حتى قيل أن الشعر كان « ديوان العرب » وكان علمهم الأول الذى تفوقوا فيه على بقية الأمم ، وهو ما قد ينسحب أيضاً على قلة من الخطباء المشهورين الذين رأينا نماذج سريعة من إبداعهم الخطابى .

ومع المنعطف الدينى الجديد ، ومع التحول العقائدى الذى شهدته الأرض العربية يبدأ التحول الهائل فى الحقل الخطابى ، ويظهر الخطيب المفوه والبليغ الذى أوتى جوامع الكلم ليبدأ فن الخطابة عبر مسارات جديدة يحسن درسها من خلال القراءة المتأنية لأى من خطبه صلى الله عليه وسلم .

وبصورة مبدئية نستطيع الزعم بأن لهذا التمايز أصوله ومقوماته من واقع مصادر الثقافة الدينية التى توافرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد استقى مادته من فيض الآيات القرآنية الكريمة التى أوحى إليه بها ربه سبحانه وتعالى ، ومن ثم كان نبوغه- وهو النبى الأمى - على درجة من الخصوصية ، اكتملت له من خلالها هيئة الخطيب وهيبته من ناحية ، فكان كما زكاه معلمه الأعلى « على خلق عظيم » وكان هو نفسه كما استشعر فى أعماقه واعترف بذلك « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » وكان كما كان فى حواره مع الناس من حوله ، وكما وصفه القرآن الكريم « بالمؤمنين رءوف رحيم » ولو كان فظا غليظ القلب لانفضوا من حوله . فلنا أن نتصور خطيب الأمة بهذه القسمات الجديدة ، وقد أوتى العلم من ربه الأعلى الذى « علم الإنسان مالم يعلم » ، لنتأمل ما أتيح له من صور النبوغ والتفوق مما يمكن أن تستوقفنا جوانب منه من واقع قراءتنا

التحليلية المتأنية لخطبته صلى الله عليه وسلم فى المسلمين فى حجة الوداع وفيها يقول :[٦] :

« الحمد لله نحمده وَنستعينهُ وَنستغفره وَنتوب إليه ، وَنعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومِنْ سَيِّئَات أعمالِنَا ، منْ يَهْدِ اللهُ فلاَ مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسولُه ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وَأحثُّكم على طاعته ، وَأُستفتح [١] بالذى هو خير .

أما بعد : أيها الناس اسمعوا منى أبينْ لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وَأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تَلْقَوْا ربكم ، كَحُرْمَةِ يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بَلَّغْتُ ؟ اللهمَّ اشهد ! فمن كانت عنده أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إلى من ائتمنهُ عليها ، وَإن ربا الجاهلية موضوع ، وَإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وَإن دماءَ الجاهلية موضوعة ، وَإن أوَّل دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب [٢] ، وَإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السِّدانة وَالسِّقَاية ، وَالعَمْدُ قَوَد [٣] ، وَشبه العمد مَا قُتِلَ بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زَادَ فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه [٤] قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، أيها الناس : إنما النَّسِيءُ [٥] زِيَادَةٌ فى

---

(١) الاستفتاح : الافتتاح والاستنصار .
(٢) وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته بنو هذيل .

(٣) القود : القصاص ، أى من قتل عمداً يقتل .

(٤) فى رواية الكامل لابن الأثير : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه يطاع فيما سوى ذلك ؛ وقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ».

(٥) أى تأخير حرمة شهر إلى آخر ، وذلك أن العرب فى الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه ، وحرموا مكانه شهراً آخر فيحلون المحرم ، ويحرمون صفراً ، فإن احتاجوا أحلوه وحرموا ربيعاً الأول ، وهكذا حتى استدار التحريم على الشهور السنة كلها ، وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة ، وأول من أحدث ذلك جنادة بن عوف الكنانى كان يقوم =

الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلُّونَهُ عاماً ويحرمونه عاماً ليواطِئُوا عِدةً ما حَرَّمَ اللّه ، وَإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات وَالأرض ، وإن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهراً فى كتاب اللّه ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُم ، ثلاث متواليات ، ووَاحد فرد : ذو القَعدة ، وَذو الحِجَّة ، وَالمحرَّمُ ، وَرجب الذى بين جُمَادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد !.

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهنَّ حق ، لكم عليهنَّ ألا يوطئن فَرْشكم غيركم ، ولايُدْخِلنَ أحَداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن اللّه قد أذِنَ لكم أن تَعْضُلُوهُنَّ [1] وَتهجروهن فى المضاجع وَتضربوهن ضرباً غير مُبَرِّحٍ فإن انتهين وَأطعنكم فعليكم رِزْقُهْنَّ وكسوتهن بالمعروف ، وَإنما النساء عندكم عَوَانٍ [2] لاَ يَمْلِكْنَ لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة اللّه ، وَأستحللتم فروجهن بكلمة اللّه، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، وَلا يَحلُّ لامرىء مال أخيه إلا عن طِيب نفس منهُ ، ألا هَل بلغت ؟ اللهم اشهد ! فلا تَرْجعُنَّ بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تَضِلُّوا بعده ، كِتاب اللّهِ ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! .

أيها الناس : إن ربكم وَاحد ، وَإن أباكم وَاحد ، كُلُّكُمْ لآدَمَ ، وَآدَمُ من تراب ،

=على جمل فى الموسم فينادى : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم ينادى فى القبائل : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه - زيادة فى الكفر ، أى كفر آخر ضموه إلى كفرهم . ليواطئوا: أى يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة ، وكانوا ربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حراماً أيضاً ، ولذا نص على العدد المبين فى الكتاب والسنة ؛ وكان وقت حجهم يختلف من أجل ذلك ، وكان فى السنة التاسعة التى حج فيها أبو بكر بالناس فى ذى القعدة ، وفى حجة الوداع فى ذى الحجة ، وهو الذى كان على عهد إبراهيم الخليل ومن قبله من الأنبياء ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام « إن الزمان قد استدار ... إلخ » - راجع تفسير الألوسى ج٣ ص ٣٠٥.

(١) العقل : الحبس والتضييق . (٢) ج عانية من عنا أى خضع وذل . والعانى : الأسير .

أكرمُكم عند الله أتقاكم ، ولَيس لعربى على عجمى فَضْلٌ إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ! قالوا نعم . قال فليبلغ الشاهد الغائب .

أيها الناس إن الله قَسَمْ لكل وَارِثٍ نصِيبَهُ من الميراث ، وَلا يجوز لِوارِثٍ وَصِيَّة ، ولا يجوز وَصِيَّةٌ فى أكثر من الثلث ، وَالولد لِلفِرَاشِ وَلِلعَاهِرِ الحَجرُ ، من أُدعى إلى غير أبيهِ ، أو تولَّى غيرَ مَوليه ، فعليه لعنة الله والملائكة وَالناس أجمعين ، لاَ يُقْبَلُ منهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ويبدأ حوارنا حول الخطبة منذ افتتاحها على هذا النسق الذى يبدو جديداً قصداً إلى رسم الأصول ، وإرساء القواعد ، وترسيخ الثوابت المتوقعة للخطابة الدينية فى أدق صورها وأول مصادرها ، وكأنه - بهذا - يحكى نهاية الصراع العقائدى بين الوثنية والتوحيدية ، منذ انطلق من منظور ذلك اليقين المطلق بوجود الخالق الأوحد ، والتأكيد عى وحدانيته - سبحانه - مما يعكس ضروباً من الآفاق الروحية العميقة من واقع :

١ - لغة التحميد : وهو يبدو تحميداً فردياً وجماعياً فى آن واحد ، ليدل - بدوره - على عموم النعمة وشمولها لكل العباد كمخلوقين لخالقهم ، وليظل معلقاً بالاستعانة والاستغفار والتوبة ، وكأنه فى حدود كل هذه المساقات - يجمع خلاصة مظاهر الضعف البشرى ، وصور النقص الإنسانى أمام كمال الخلق الأعلى ، مما يحكى جانباً من البعد الدينى المرصود منذ فاتحة الكتاب الكريم « الحمد لله رب العالمين.... إياك نعبد وإياك نستعين »..

وكأن الخطبة - من واقع هذا الاستهلال - تنم عن جوهر دور رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاقتراب من جماليات النص القرآنى فهماً وتذوقاً ووعياً وإدراكاً ، وهو ما يدعمه موقع سنته الشريفة - على المستوى القولى - تفصيلاً لما أجمل ، وبياناً لما شرع من خلال وحى السماء .

ويبدأ التحميد بصيغة الجمع الدالة - بطبيعتها - على جوهر الرابطة الروحية الجديدة ، تلك التى جمعت شتات الأمة الموحَّدة الموحِّدة ، وهو ما يوزع بين مستويات التحميد والاستعانة من ناحية ، ثم مستويات الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله من ناحية أخرى ، وفى كلٍّ يبدو منطق التوحيد المطلق أساساً واحداً مؤكداً لكل هذه الصور

من الاعتراف بسالب النفس البشرية لولا رحمة خالقها بها ، ولولا قبوله أوبتها واستغفارها من ذنوبها، وإمكانية التجاوز عن خطاياها .

ويأتى التكرار للفظ الجلالة نمطاً بلاغياً دالاً بذاته على تكرار تأكيد الوحدانية المطلقة ، كما يظل كاشفاً عن طموح النفس البشرية إلى الخلاص من أوشابها ، ورفض انحدارها إلى أى من درجات الشك أو الشرك ، على نحو مما تعكسه صيغة الاستعاذة بالله - وحده - من شرور النفس ، وتسلط أهوائها ، وسيطرة وساوسها ، ومن سيئات ما تجتنيه من الرذائل والخطايا ، وما تأتى به من قبيح الأعمال ، وهو ما يتأكد من منظور الشاهد القرآنى حين يردده عليه السلام ، ويزين به كلامه « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ».

وإذا بالاقتباس القرآنى يظل متمكناً من توجه الخطيب على المستوى العقلى ، مسيطراًعلى ذاكرته منذ لحظة الاستهلال ذاتها ، وإذا بالآية القرآنية تعكس - أول ما تعكس - طبيعة النفس البشرية المهدية والضالة ، وكأنه يضع المفارقات واضحة بين السالب والموجب ، بين الخير والشر ، وهو استكمال واضح لمنطقة الصراع الأولى التى طرحتها الجملة السابقة ، والتى حكتها كلمات الاستعاذة ، ورسختها صور التوبة والاستغفار والإنابة .

وإذا بالاقتباس يحكى - أيضاً - طبيعة تجليات تسليم المخلوق بإطلاق قدرة خالقه، فهو- سبحانه - الهادى إلى سبل الرشاد والخير ، مما يضمن للإنسان سلامة المسلك ، ويؤكد لديه صحة العقيدة ، فلا ينصرف - بحال - إلى أى من أبواب الضلالة إذا ما كتبت له الهداية - أصلاً - من قبل خالقه سبحانه وتعالى .

ومن واقع هذا التسليم وذلك الخضوع وتلك الطاعة ينطلق الخطيب عليه السلام إلى شهادة التوحيد التى ترد لديه مؤكدة تأكيداً بلاغياً مزدوجاً ، فهو يشهد أن لا إله إلا الله، دالاً بذلك على نفى أدنى صورة من الندية والمثلية والشبيه نفياً تاماً ، ليوغل فى تأكيد هذا النفى بالتوحيد الصريح أولاً ، ثم تأكيد عدم وجود الشريك صراحة ثانياً ، ثم تكتمل الشهادة بدور الرسول عليه السلام عبداً لله ورسولاً منه إلى البشر كافة ثالثاً .

وهنا يستوقفنا مرمى الخطيب إلى ترسيخ الركن الأول من أركان الإسلام ، وهو مالا يصح إسلام المرء إلا به عن يقين صادق جلى واقتناع داخلى مما يضمن له سلامة

الاعتقاد ووصحة المسلك فى ظل مساقات منضبطة ومساحات محكومة بصحة الأصل والفرع جميعاً.

ومن منطلق تأكيد الشهادتين - كأصل دينى - يبدأ الخطيب صلى الله عليه وسلم فى مخاطبة جمهوره ، وهو يدرك - منذ البداية - أنه جمهور مهدى متميزلأنه جمهور مسلم يؤمن بما آمن به ويسلك مثل مسلكه تحميداً وتوحيداً وإيماناً ويقيناً ، ومن هنا كانت بداية الحوار دالة على إدراك الخطيب للطبيعة النوعية لهذا الجمهور ، وهو ما حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : أوصيكم- عباد الله - بتقوى الله ....

حيث خاطبهم بما هم أهل له من عبودية لله تتطلب الخشوع والخضوع والاستسلام ، ومن ثم حتمية الاستماع والاستجابة والطاعة ، ومن ثم كانت براعة الخطاب فى تخصيص دائرة المخاطبين بما سيخاطبهم به عليه السلام من ضرورة تقوى الله ، ومن الحث على طاعته ، وتجنب معصيته .

ثم يتضح أن كلام الخطيب هنا قد بدأ يستحوذ على مشاعر جمهوره ، ويضمن انصرافه إلى مقولاته دون سواها ، فقد كرمهم مرة بعبوديتهم لخالقهم الأعلى ، ثم كرمهم أخرى حين جعل من نفسه لهم ناصحاً وموجهاً ، يوصيهم بما أوصى به نفسه ، وكأن الرسول- صلى الله عليه وسلم - قد رسم « كيفية استثارة الانتباه ؛ وأدرك كيفية إعداد المخاطب وتهيئته نفسياً وذهنياً ، وتشويقه بتفتح عقله وقلبه معاً لتلقى الحقائق والمعلومات »[٧]

وبدا طبيعياً ومنطقياً من واقع هذا الإعداد أن يبدأ خطبته عبر الإقرار بالاستفتاح بما هو خير .

ومن واقع هذا التقديم الدينى للخطبة ينتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى صميم موضوعها ، وعندئذ يبدأ بتعميم الصيغة الخطابية ، فقد أرسله الله تعالى للناس كافة ، **ومن ثم كان ذلك التوجه الخطابى - بهذا التعميم - فهو بصدد رصد لجوانب تشريفية** تنظم حياة جمهور المخاطبين جميعاً بلا استثناء ، وهو يرسم لهم منهج عيش ودستور حياة يجب أن يتبع بجملته وتفاصيله ، ومن ثم كان مسوغ تكرار صيغة « أيها الناس » وكأنها تعكس أمرين جوهريين :

أولهما : القصد إلى إطلاق ذلك التعميم الذى عرضنا له عبر هذا التحليل .

والثانى : ذلك التأدب والتهذيب الذى عكسته الصيغة وصدرت عنه إذ جاء فيها فعل الأمر معللاً بذلك البيان :

اسمعوا منى أبين لكم ، وهى - بلا شك - لغة تشويق تجذب الجمهور لسماع هذا الضرب من البيان ، وهو بيان يبدو غاية فى الخصوصية حين يطرحه آخر الأنبياء كآخر بيان يذاع بين البشرية من رسول تلقى وحى السماء .

وترسم هذه الخصوصية أبعاداً نفسية متميزة لدى الخطيب ولدى جمهوره على السواء ؛ فهى من قبل الخطيب تحكى جوانب من حرصه على أمته ، وتبرز دأبه على صدق التوجيه ودقة الإرشاد قبل ألا يفارقها ، وهى من قبل الجمهور تعكس تعلقه بالخطيب وحرصه على تلقى ما سيأتى من لدنه تفصيلاً وتحليلا ؛ فهو يضع لهم أصول التشريع ، ويحدد مقومات الدستور بما يوجب السمع والطاعة ؛ وفى مجملها تبدو الأمور موزعة بين دلالات الإشفاق والرغبة فى التعميم ، وبين ما يبعثه تكرار النداء فى النفس من صور الطمأنينة والأنس ، وما يضمنه من يقظة الجمهور وشيوع السكينة فى نفسه وظهور التأدب لديه حال التلقى والمتابعة ، إلى جانب ذلك الاستحضار العقلى له فى ذاكرة خطيبه ناصحاً وموجهاً .

ولعل هذا البيان - فى ظل هذه الملابسات - يحكى جلال موقفه صلى الله عليه وسلم بين رعايا أمته ، بدليل ما أردفه من قوله « بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا » مما يكشف هيبة الموقف مكاناً وزماناً على السواء .

ويبدو العمد إلى تكرار لغة الخطيب هنا سمة مميزة من السمات الخطابية الذى تجذب إليه جمهوره فلا يكاد ينصرف عنه إلا إليه ، وإن بات مؤكداً أن الناس لم يكونوا لينصرفوا - بحال - عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولعله - بذلك - قد وضع الأصول والأسس التى يجب أن تتبع فى الخطابة الدينية فى عصره أو ما آل إليه أمرها من تحول إلى مجالات سياسية أخرى من بعده .

وفى مثل هذا التكرار ضمان أيضاً لصفاء تلقى الجمهور لتفاصيل ما يلى من محتوى الخطبة ، وهو ما طرحه عليه الصلاة والسلام بعد ذلك منذ بدأ العرض التشريعى القويم للمسلمين ، وهو ما يمكن تأمله من عدة زوايا ، وطرحه من خلال عدة اتجاهات :

أولها : ذلك المحور السياسى الذى يضمن للفرد والأمة حياة آمنة مطمئنة مما يعكسه - صراحة - قوله صلى الله عليه وسلم للمسلمين « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » موضحاً بذلك مدلول النص القرآنى حين حرّم قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق» « فمن قتلها فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » ، « ومن قُتِل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ».

فمن البديهى والمسلم به أن حقن الدماء وحفظ الأموال وصون الأعراض يظل مؤشراً من مؤشرات التوازن الاجتماعى والسياسى بين الأمم ، وإنهاء لما درج عليه مجتمع الجاهلية من فوضى الثأر والصعلكة واللصوصية والظلم والبطش والعنف ، وهو إيقاف لنزيف الدماء الذى أنذر بدمار المجتمع فى غيبة التشريع الذى يضمن للإنسان الحفاظ على مقومات إنسانيته فى مدار حياة آمنة فى ظلال الصراعات الاجتماعية التى لم تعرف هدوءاً ولا توقفاً ولا انتهاءً .

ومن واقع إحساس الخطيب عليه السلام بخطر ما يقوله ، ومن منطلق حرصه على استمرار ترابط أمته من بعده راح يوغل فى تناول هذا المعنى ، ويلح على تأكيد قداسة حرمة المال والدم والعرض تأكيداً لحديثه صلى الله عليه وسلم « كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله » ليجعلها حرمة أبدية إلى يوم القيامة ، وهو ما كنىٌ عنه بلقاء الناس لخالقهم يوم القيامة ، وهى الكناية التى تبعث على تأكيد عمق الإيمان ، والاطمئنان إلى حقيقة البعث والنشور ، والتسليم بقضايا الغيب التى لا يكتمل إيمان المرء إلا من خلالها .

ومن تأكيد أبدية هذه الحرمة أوغل الخطيب مرة أخرى حين عمد إلى التشبيه ، فجعل حرمة المال والدم كحرمة الأشهر الحرم والبلد الحرام ، وكأنه أحس أنه قد أتى بكل ما لديه من صيغ التوكيد التى توجُها بلغة الاستفهام ، وهى من أخص وسائل الخطيب فى ضمان نجاح أصداء حواره فى عقول جمهوره ، وهو ما تكرر على مدار الخطبة حين استفهم الرسول عليه السلام من القوم ، ثم ما أردف به من إشهاد الله على ما يقول . وفى أى من صيغ التوكيد، وعبر كل من مستوياته تبدت براعة الخطيب ، وتكشفت قدرته على احتواء جمهوره ، وبانت ملكاته حول التأثير فيه ، والسيطرة على وجدانه وعقله ، مع ضمان عدم انصرافه عنه إلا إلى مزيد من الاستجابة له والحرص على الاستماع إليه ، فكيف ينصرف

عنه المسلمون ، وهو - صلى الله عليه وسلم - يشهد ربه على ما يقوله فيهم ، خاصة بعد تكرار ذلك الاستفهام الذى يبعث - أول ما يبعث - على ارتياحه النفسى ، فقد ضمن سلامة الرسالة التى حمل عبئها ، ونهض بإبلاغها للناس عامة .

ومن عمق هذا المحور السياسى المتميز تنتقل الخطبة لترصد بُعداً اجتماعياً ويبدو على نفسى الدرجة من التمايز بما يضمن سلامة العلاقات الاجتماعية بين الناس أمماً كانوا أم قبائل ، جماعاتٍ أم عشائر ؛ ذلك أن قضية أداء الأمانة تظل مطلباً جمعيا ملحاً فى ضمان صفاء العلاقات البشرية ونقائها ، وبذلك جاءت صيغة الشرط لتحل هذه الإشكالية بشكل مطلق ؛ فمن كانت لديه أمانة فليؤدها إلى صاحبه الذى ائتمنه عليها ، ولنا أن نتأمل جمال الانتقاء اللفظى بين مادة الأمانة فى ذاتها وبين طبيعة الائتمان عليها .

ومن عطاء هذا المحور الاجتماعى يتوالد الحوار حول النموذج الاقتصادى منذ قصد الخطيب إلى استقطاب آخر لجمهوره ، ليضمن له سلامة التعامل من واقع صدق العلاقة ، فيعلن تحريم ربا الجاهلية - على إطلاقه - تأكيداً لمدلول النص القرآنى بالطبع فقد أحل الله البيع وحرم الربا . وأن دور الخطيب ينتهى عند موجب هذا التأكيد لما حرم بالفعل نصاً، وإذا به - صلى الله عليه وسلم - يزيد هذا التأكيد خطراً حين يعمد إلى النسبة الجاهلية من قبيل التبغيض أو التنفير والاستهجان شأنه فى ذلك شأن دماء الجاهلية .

ثم يزداد التأكيد أهمية حين يسقط - عليه السلام - ربا عمه العباس بن عبدالمطلب، وكأنما أسقط عن كاهل المدينين له ما وقع عليهم من فحش الربا ، فإذا بالخطيب يضرب أمام جمهوره هنا المثل الأعلى حين يبدأ من عشيرته ، ويتوقف عند المقربين إليه ، وهو ما يعكس - بالتأكيد - منطق الصدق ، ويبرز روح الحيدة والتجرد ، إلى جانب واقعية الخطيب وموضوعيته حيث لا يجد حرجاً ولا تردداً بصددها على وجه الإطلاق .

وكما أعلن فى القوم تحريم الربا أردف الأمر بتحريم دماء الجاهلية فى نفس السياق، فما كان لمسلم أن يثأر لقتيل له بعد أن ضمن له الإسلام ذلك عن طريق ولى الأمر « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً ».

ولعل مزيد مزيداً من حرص من الخطيب على جمهوره قد دفعه إلى نسبه ما ينهى عنه إلى الجاهلية مما يجعل الجمهور لها أشد رفضاً ، ومنها أشد ضيقاً واشمئزازاً .

ومرة أخرى يستعين لتأكيد مقولته بما وقع فى بنى عشيرته ، وذلك حين يسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، مؤكداً بذلك مصداقية تعاليمه - صلى الله عليه وسلم - من واقع أقرب الناس إليه نسباً ، ألم يقل لابنته فاطمة « يا فاطمة بنت محمد اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » ثم ألم يقل عنها أيضاً « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » حين رفض الشفاعة فى إقامة حد السرقة على المرأة المخزومية . وهنا يتردد لدى الخطيب حرصه على وضع الثوابت وإرسائها بصورة قاطعة لا تحتمل جدلاً ولا مراوغة ، ولا تعرف نسباً ولا حسب ولا عصبة ولا انتماء ولا مواراة ، فالحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات ، والناس سواء إلا من خلال التقوى والقرب من الله ، وهو ما ينتهى إلى تعميم الحكم على كل ما كان من مآثر الجاهلية التى طالما اعتدّ بها القوم من قبل ، وقد اتخذوا منها دستور حياة وأساس سلوك زمناً طويلاً ، وهو ما طرحه الرسول صلى الله عليه وسلم مجملاً دون تفصيل من قبيل تأكيد مثل هذا التعميم الذى يرمى إليه ، خاصة أن القوم يعرفون جيداً مآثر الجاهلية ، فمن المعلوم لديهم ما كان - مثلاً - من مأثرة الخمر والمياسرة ، أو ما عرفة بعضهم من وأد وغيرها من سلبيات سلوكية حرمها الإسلام ، وأخذ منها مواقف عدائية قاصداً إلى تصحيح المسلك وضبط المسار ، وهادفاً من بعدها إلى سلامة العلاقات فى صورتها الإنسانية القويمة .

ومن الإطلاق إلى الاستثناء يتوقف الخطيب عليه السلام عند ما يستحسنه ويتمنى استمراره من موجب مآثر الجاهلية ، وهو ما يحض القوم على الحفاظ عليه ، ولا يأبى استمرارهم فيه ، على نحو مما حدده مما كان من مؤشرات الاستعداد الدينى ، وحس القداسة حول خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ، مما اعتد به من القوم سادتهم من قبل ، وهو ما ظل مجالاً رحباً للتنافس بينهم حول حوزة أى من تلك المكارم ، والتسابق إلى الحفاظ على شرف تلك المكانة . وكأن هذا الاستثناء ينتقى من صور العلاقات الاجتماعية ما جاء متعلقاً بالجانب الروحى ، وهو ما تكتمل به الرؤية الدينية ، وكأن الاستثناء لم يقع إلا فيما يتعلق بالبيت الحرام وزواره وسدنته وسقاته دفعاً لكبار القوم إلى الإبقاء على تلك المآثر ، وحوزة تلك المناقب والمحامد وعدم التفريط فى أى منها .

ومن الاستثناء تأتى العودة إلى رصد بقية الضوابط الاجتماعية اتى تحدد شكل الحياة بين البشر ، وهو ما سبق تناول جوانب منه حول دماء الجاهلية ، وإسقاط فوضى الثأر القديمة ، فإذا بالمصطفى عليه السلام يضع معالم الدستور الإسلامى بمزيد من

التفصيل أمام القوم ، مردداً فى ذلك ما جاء به النص القرآنى الكريم من ضرورة القصاص فى جرائم قتل العمد « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب .. » ليشرع أيضاً تدرج العقوبات فيما جاء فى شبه العمد أو القتل بطريق الخطأ ، وفيه تدفع الديات إلى أهل القتيل بما لايزيد على مائة بعير ، وهو ما يردفه الخطيب عليه السلام بلغة التأكيد حول عدم المغلاة أو التجاوز لما نص عليه ، وهو ما يتأتى مرة أخرى من هذا التنفير المرتبط بالجاهلية .

ومن السياقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ينتقل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى التوقف طويلاً عند المستوى الدينى للخطبة ، وهو المحك الأول الذى انطلق منه، وانتهى إليه ، وبينهما استطرد حوله مراراً منذ خاطب الناس معاوداً التوجه إليهم منذ حذرهم من الوقوع فى حبائل الشيطان ، خاصة أنه - أى الشيطان - قد يئس أن يعبد فى تلك الأرض المباركة ، ولكنه سيظل يصارع من أجل أن يصرف الإنسان عن عبادة خالقه ، ويوسوس له ليوقعه فى أشطان الرذائل ، وهو ما حذر منه - صلى الله عليه وسلم - كاشفاً عن مدى حرصه على قومه ، وضمان سلامة أمته من أن تقع ضمن ضحاياه .

ثم يأتى عود آخر إلى لغة الخطاب ، وحوار متكرر حول سلوكيات الجاهلية تنفيراً منها ، واستهجاناً لها ، واستنكاراً للارتداد إليها ، وتحريماً لتنكب الكثير منها ، مما يعد قاسماً مشتركاً بين المواقف الدينية والاجتماعية والسياسية على السواء ، وهو تدرج منطقى غاية فى الدقة مما تبدى فى حديثه - صلى الله على وسلم - عن النسىء باعتباره كفراً- بل هو إمعان فى الكفر - وهو ما يستعين فيه الخطيب - صلى الله عليه وسلم - بنص الآية الكريمة اقتباساً كاشفاً عن لجاجة أهل النسىء وضلالهم وتجرؤهم على خالقهم - سبحانه - حين يعتدون على حدوده فى عمق الأشهر الحرم ، أو يحاولون التلاعب بأيام الله، فتجاوزوا - بذلك - طورهم ، وتمادوا فى خطى غيهم ، وهو ما جعل الخطيب - عليه السلام - يلجأ إلى اقتباس الآيات القرآنية ليأتى بالحجج الدامغة دالة على بطلان مسلكهم، وتأكيداً لقبح ما يقولونه ، ليدخلوا من خلاله أوسع أبواب الكفر ومتهات الضلال. وبين الاقتباسين يأتى الخطيب بفاصلة مؤكدة حين يصور من الزمان أزليته وأبديته كما خلقه خالقة - جل شأنه - ليستنكر شأن الإنسان حين يجرؤ على تغيير الأزمنة ، أو يحاول التلاعب بالشهور لرغبة فى إغارة أو اصطناع حرب أو نيل ثأر فى الأشهر الحرم .

وفى سياق الاقتباس الثانى من واقع النص القرآنى الكريم تستوقفنا براعة الخطيب عليه السلام ، وتدهشنا روعة أدائه ، مع دقة اختياره للآية المقتبسة ليأتى بتعليقه عليها تفصيلاً لا يقبل جدلاً ولا مراوغة ولا مراء ، فمن منطلق بيان الحلال والحرام ردد الرسول - عليه السلام - الآية القرآنية متخذاً منها موضعاً للشاهد على التحريم برصد ما يفيد عدة الشهور من لدن خالقها ، وما كان منها ضمن الأشهر الحرم ، فإذا به - عليه السلام - يحدد للمسلمين أسماء تلك الأشهر تحديداً ، مما يقطع عليهم إمكانية التلاعب بأى منها ، فيحدد - بالقطع - الثلاثة المتواليات ، والشهر المفرد حين حدد موقعه بين جمادى وشعبان، حتى لا يترك للقوم مجالاً فيه لتقديم أو تأخير على الإطلاق .

ثم أردف الرسول - صلى الله عليه وسلم - حواره مع جمهوره بمايضمن منه البلاغ ، ومنهم السماع والفهم والاستيعاب من خلال صيغ الاستفهام حيناً والإشهاد أحياناً أخرى ، وهو ما تأكد من خلال منطق التكرار ، فلا شك أن الاستعانة بصيغ النداء تظل دالة على ذلك الإشفاق وتلك الرغبة فى التعميم ، كما يدل التكرار على مزيد من الحرص على بعث الطمأنينة والأنس فى النفوس، كما تظل صيغ الأمر مؤكدة لعمق معانى النصح والإرشاد والتوجيه ، ومن مجموعها يتراءى للجمهور دقة إدراكه - صلى الله عليه وسلم - لموقع قوله أمام النص المقدس من ناحية ، ثم قدرته على التعليل وتحديد حقيقة الأسباب بكل تفاصيلها من ناحية أخرى .

وينتقل الخطيب - عليه السلام - إلى مجال تشريعى آخر له خطره وأهميته فى توجه المجتمع الإسلامى ، وفى ضبط حركة جمهوره وضمان طهارته ونقائه ، فإذا به - عليه السلام - يتوقف عند جوهر العلاقات الإنسانية عبر كل حدودها من أوسعها مجالاً إلى أشدها ضيقاً ، فيصل من المستوى الإنسانى العام ومن واقع مفهوم الدولة إلى مستوى الأسرة ليضع لها القواعد ، ويرسم المبادئ ، فيبين موقع النساء والرجال من بناء الأسرة المسلمة ، ومن خلالها يكشف عن جوانب من تكريم الإسلام للمرأة قياساً على مدلول النص القرآنى حول توصيف الطبيعة النوعية لعلاقة الرجل بالمرأة فى محيط أسرتهما « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » وهنا يكشف الخطيب عن استقرائه لكل شئون جمهوره ماعظُم منها وما صغُر على السواء ، وهو ما تتسع مساحته بين رحابة المستويات التى رأيناها وبين حديث الأسرة هنا فى أضيق حدودها من واقع الرجل زوجاً والمرأة زوجة ، وهنا- أيضاً - يبدو ذلك الالتفات الخطابى واضحاً من حيث الاعتداد بموقع

المرأة من الكيان الأسرى ، مما يستدعى أن يرسم لها قانوناً يضمن لها تجاوز مراحل المهانة والابتذال التى عانت من أهوالها فيما قبل الإسلام ، فإذا بالخطيب ينص على المقومات ويحدد المعطيات التى تضمن لها الاستقرار والأمن فى حياتها ؛ وتحتفظ لها بكل حقوقها كاملة ، كما تكشف أمامها كل واجباتها من واقع متطلب الفطرة القويمة كما تمليها ضرورات الحياة من واقع وعيه - صلى الله عليه وسلم - بأن النساء شقائق الرجال ، وهو ما دعاه - كخطيب - إلى تدرج منطقى واعٍ يبدأ من تسجيل حتمية أمانتها ، وحفظ غيبة زوجها ، فلا تُدخل أحداً بيته إلا بإذنه ، ولا تأتى بفاحشة مبينة ، فإن وقعت فى أى من المحظور فقد حدد الرسول- عليه السلام - بياناً واضحاً لما حدده الإسلام صراحة من صور العقاب التى يمكن أن تضمن تراجعها عن قبح المسلك إلى صحيحه ، بدءاً فى ذلك من التضييق عليها إلى ضربها ضرباً غير مبرح ، وهو ترديد مقصود لدلالات الآيات القرآنية التى نزلت بهذا الصدد .

وقد يطول طرح مشكلة العلاقات الأسرية ، خاصة حين تزداد تفاصيلها ودقائقها مما يعكس مزيد اهتمام الخطيب - عليه السلام - بها ، وحرصه على الإفاضة فى كل شئونها ، ومما يؤكد خطر الأمر حين يتعلق بموقع الأسرة السليمة من بناء مجتمع إسلامى قويم ، ومما دفع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تفصيل القول حول النساء بهذه الصورة ؛ من تصوير ضعفهن ، إلى دعوة الرجال إلى تقوى المولى - سبحانه - فيهن ، إلى وصايته - صلى الله عليه وسلم - عليهن خيراً ، وأظننا لا نتصور تكريما رفيعاً للمرأة بأكثر مما جاء به الإسلام قرآناً وسنة ، وتشريعاً مفصلاً .

وفى حواره - صلى الله عليه وسلم - حول كيان الأسرة المسلمة الكريمة نراه يستعرض الموقف بمنطقية محكمة ، وفى سياق تصانيف دقيقة يسلم بعضها إلى بعض ، فإذا به ينطلق من تصوير مواقف الرجال والنساء ، ومن التوقف عند طبائع العلاقات الإنسانية بين الفريقين ، وما كان لكل منهما على الآخر من حقوق ، وما على كل منهما للآخر من واجبات ، وعلى إمكانية التقصير وكيف تكون طبيعة الجزاء ، فيبدو الموقف محكوماً بذلك الاستقصار الذى لم يترك شيئاً يتعلق بجوهر العلاقات الأسرية إلا ويضع لها المعالم والخطوط ، ويرسم لها القسمات ، ويحدد الملامح التى يجب أن تحترم من كلٍّ لكلٍّ ، ويصبح تجاوزها ضرباً من الرغبة فى الخروج على تعاليم الإسلام ومعطيات العقيدة.

وعلى عادة الخطيب - عليه السلام - فى ضمان إبلاغ الرسالة نجده يردد ما تطمئن

إليه نفسه ، وما يطمئن به جمهوره من الإبلاغ بالاستفهام والإشهاد معاً ، وهو - كما رأينا آنفاً - ما يمثل جانباً بارزاً من جوانب المنهج الخطابى الدقيق الذى يكشف عن ذهن حاضر، ورأى سديد ، ونظر بعيد وتدبير حسن عبر كل الأطر المطروحة فى الخطبة .

ويبدأ طرح الإطار الإنسانى العام من تأكيد منطق الأخوة فى الإسلام ، وإسقاط شأن العصبيات وسلطان الحسن القبلى ورابطة الدم ، لتحل محلها الرابطة الروحية الجديدة، ففى قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » ما يجمع كثيراً من المعانى الإنسانية المطلقة ، وهو القياس الذى نص عليه القرآن الكريم مراراً من ناحية ، وما أكده سلوك المصطفى عليه السلام منذ جعل سلمان الفارسى واحداً من آل البيت ، وكذا ما كان من موقفه من صهيب الرومى وبلال الحبشى ، وغيرهم ممن حُسن إسلامهم بصرف النظر عن شرف الانتماء أو العناصر ، أو الأجناس التى انتهت إليها أنسابهم ، وهو التطبيق العملى لقوله - عليه السلام - « كلكم لآدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ».

أو من قوله - صلى الله عليه وسلم - « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » حيث يدور فى فلك الدلالة القرآنية المؤكدة فى قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »..

وكما نصت الآية الكريمة على ضمان استمرار الأخوة بإصلاح ذات البين بين الإخوة « فأصلحوا بين أخويكم » نصت الخطبة هنا على ضمان هذا الاستمرار من خلال عدم استحلال المسلم لمال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، أرأيت هنا تأكيد حرصه عليه السلام على جمهوره من خلال الاطمئنان إلى إبلاغه مراده استفهاماً وإشهاداً وتوكيداً متكرراً .

وضمن سياق هذا الإطار الإنسانى العام تتراءى لنا صورة الخطيب عليه السلام أشد حرصاً على قومه ، وأكثر خوفاً عليهم من أن يرتدوا إلى ما كان من صراعات الجاهلية ، أو أن تجذبهم قيم الوثنية البائدة ، أو أن تغريهم فوضى الثأر والتمزق الإنسانى الموروث ، مما دفعه - عليه السلام - إلى أن يرشدهم إلى طبيعة الالتزام بصحة المصدر الذى يجب ألا يتحولوا عنه إلى سواه ، وألا يميلوا عن أى من مبادئه وقيمه وتشريعاته ؛ كتاب الله سبحانه . ثم يعود ليستفهم وليُشهد من نفس المنطلقات السابقة ، ولكنه الاستفهام

والإشهاد الواقع هنا فى منتصف الحوار ذى البعد الإنسانى العام ؛ وهى مسألة تبدو مبررة بقدر اتساع الدائرة الإنسانية التى قصد عليه الصلاة والسلام إلى الحوار حولها ومن خلالها، وهو ما يحتاج - بدوره - إلى المزيد من صيغ التأكيد عن طريق ترشيح هذين الأسلوبين وأشباههما من صيغ استفهامية أو معاودة الإشهاد على السواء .

وفى حدود نفس الأطر الإنسانية يردد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما جاء به النص القرآنى الكريم فى مخاطبة البشرية على درجة من المساواة بين أجناسها ، على النحو الذى عرضنا له من قبل ، فمن واقع هذا الدستور الإسلامى الرحب كان تأكيد الرسول - عليه السلام - للناس بوحدة الأصل منسوباً إلى آدم عليه السلام ، ثم وحدة العبودية لله وحده لا شريك له . ويردد وحدة النسب إلى آدم - عليه السلام - مقرونة بأصله من التراب إنهاء للصراعات العصبية ، وإغلاقاً لما شاع من صراع السادة والعبيد أمام هذا التوحد الذى ينتهى إليه الأصل فى مجمله ، وعندئذ يردد الرسول - عليه الصلاة والسلام - فاصلة الآية القرآنية الكريمة « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » فهو بصدد تفصيل ما نصت عليه الآيات لينفى سبل المفاضلة بين العربى والأعجمى من واقع قضية الأنساباً والانتماء بروابط الدماء ، إذيصبح المعيار الأول هو التقوى لا سواها .

وحين يستفهم ويشهد ويجيبه الجمهور بنعم ، ينتقل - عليه السلام - إلى ما يضمن له صحة عموم الإبلاغ . فيحمل جمهور المتلقين جانباً من تبعة الإبلاغ لمن لم يكن حاضرا حجة الوداع ، وهى مسئولية تتطلب من الجمهور وعياً تاماً بكل ما جاء من الخطيب كما تستلزم الأمانة فى نقله عنه جملة وتفصيلاً .

وقبيل ختام خطبته يعرج - عليه السلام - على قضية المواريث ، وفيها يكاد يحيل إحالة صريحة إلى النص القرآنى الكريم ، فقد فصّل جوانبها ، وعرض كل مشكلاتها ، وتستوقفه الوصية التى يوصى بها المورّث حتى الثلث ، بلا زيادة ، وعندئذ يأتى بنقاط مركزة شديدة التحديد والدلالة بما يضمن نزاهة القائم على أمر المجتمع الإسلامى فى إقامة حدود الله ، وتنفيذ العقوبات ضماناً لنقاء النسب واستمرار شرف الانتماء ، وهو ماتكتمل به - بشكل حتمى وموضوعى - قضية المواريث ، ليكون النسب خلالها صريحاً صحيحاً، إذ لا يجب أن ينسب أبناء العواهر إلا إلى أصحاب الفراش ، وقد حرم ألا ينسبوا إلى غير آبائهم ، أو أن يتركوا بلا أنساب، إلى جانب ما نص عليه - إيجازاً - من حتمية إقامة

حدود الله، مشيراً إلى ضرورة تنفيذ الحد فى رجم العواهر حتى لا تشيع الفاحشة فى المسلمين ، وحتى لا تشوب أنسابهم شائبة من حرام .

ثم تنتهى الخطبة الكريمة نهاية دينية كما كانت البداية ليلقى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بتحية الإسلام على عباد الله بعد هذا الحوار الطويل الذى كثرت تفاصيله إليهم .

وخروجاً من هذه الدائرة التحليلية يبين لنا ما كان من فصاحة لسان الخطيب - صلى الله عليه وسلم - وقد أوتى جوامع الكلم مما برز لديه فى بلاغة قوله ، ونصاعة لفظه ، ورونق حكمته ، ودقة أدائه وقلة تكلفه ، إلى جانب حرصه على جمهوره مما تبدى فى صبره وأناته ، وحلمه وعفوه ، ثم امتلاكه ناصية القول ، ووعيه بمقومات الفن الخطابى التى يمكن أن نقف عند أهم معالمها من خلال :

أولاً : الطبيعة النوعية للتقديم للخطبة من خلال حسن الاستهلال وبراعة المواجهة والاستحضار العقلى للجمهور ، إلى جانب الاستحضار الفعلى له ، فكانت البداية بحمد الله والثناء عليه وتوحيده مما يتسق مع منطق الخطبة فى مسارها الدينى ومساقاتها التشريعية المتميزة ، وهو ما يكتمل بنظيره فى حسن ختام الخطبة على نفس المنهج مما يبدو كاشفاً - بشكل طبيعى - عن تمايز شخصية الخطيب - صلى الله عليه وسلم - وكذا وعيه المتميز بطبيعة جمهوره .

ثانياً : أن الخطيب - عليه السلام - قد تعددت لديه الأساليب وتنوعت مستويات الأداء الفنى ، بما يكفى لضمان سيطرته على مشاعر جمهوره وفكره ، مما يضمن - أيضاً - عدم انصراف الجمهور عن أى التفاصيل المطروحة عبر الخطبة ، وهو ما يكشفه لنا ذلك الحوار التقريرى من ناحية ، وتلك الاستعانة بأساليب النداء وكثرة صيغ الاستفهام وأساليب التوكيد من ناحية أخرى .

ثالثاً : ومع هذا التنوع الأسلوبى تبدو الخطبة بمنأى عن أى من مستويات التكلف أو الغموض أو التعقيد ، فإذا بالخطيب يظل مشغولاً بجمهوره ، ويرمى من وراء قوله إلى الإفهام والإقناع ، وهو ما تأتىّ من شهادة القرآن الكريم للرسول - صلى الله عليه وسلم - فما كان من المتكلفين ، وهو ما تعكسه لنا - بجلاء - قراءتنا للخطبة التى وردت بلا تعقيد لفظى ، ولا قصد إلى غموض تصوير ، أو إغراق فى

مجاز ، ولا انشغال برموز أو طلاسم ، ولا عمد إلى أى من صور الإبهام أو اللبس، بل صيغت فى تراكيب وجمل واضحة ناصعة الدلالة ، وألفاظ بانت معانيها ، وتكشفت مراميها بلا التواء ولا إبهام .

رابعاً : أن الطابع الدينى ظل مسيطراً على الخطبة يشد أفكارها ويحيط بمعانيها ، فلا تكاد تنفلت من الإطار القرآنى ، سواء ما جاء من اقتباسات صريحة للآيات ، أو ما ورد من طرح عام للمعانى القرآنية ، ولا غرو فى ذلك ، فهى خطبة دينية من طراز شديد التميز فى فترة من التاريخ شديدة التميز أيضاً .

خامساً : أن الخطبة جاءت شاملة لمستويات كثيرة ، فقد احتوت ضروباً تشريعية متعددة المجالات ، تبدأ من حوار حول الفرد فى نطاق تكوين الأسرة وتنتهى عند أبعاد إنسانية شديدة الاتساع ، فكانت أقدر على وضع الأطر التشريعية للمجتمع الإنسانى عبر كل مستوياته ، بما يضمن له سلامة البقاء وصحة المنهج عبر حياة كل أجياله .

سادساً : أن الخطبة - على مستوى الأداء اللغوى - بدت خالية من القصد إلى الألوان البديعية، فلا سجع ولا مجانسات ولا طباقات متكلفة ، فكانت لغتها أقرب إلى التقريرية والمباشرة، تستهدف توصيل المعانى إلى جمهور المسلمين حتى فيما بعد زمانها ، وهو ما أحسه الرسول - عليه السلام - حين طلب من جمهور الحضور إبلاغ من غاب عن الخطبة ، مما ينسحب على جوهر العموم فى توظيف الخطبة للناس كافة ، حتى تتجاوز حدود الزمان والمكان عبر مثل هذا العموم وذلك الانتشار .

سابعاً : شيوع التكرار المتعمد فى لغة الخطيب ، وهو أسلوب فنى يضمن له السيطرة على جمهوره ، ونشر أفكاره ، وترسيخ مبادئه ، ولعل هذا التكرار أشد مابدا شيوعاً فى مخاطبة الناس بأسلوب النداء مراراً ، وكذا فى ترديد صيغ الاستفهام من خلالهم ، ثم فى إشهاد الله - سبحانه - على ما يقوله لهم .

ثامناً : جمعت الخطبة صوراً كثيرة وملامح خاصة للخطيب غلب عليها حسن المنطق وروعة الإبانة ، فما نزل - قط - إلى مستوى لفظ سوقى أو مبتذل ، وما تكلف ولاتقعر، بل جاءت الأنساق اللغوية لديه منضبطة محكمة ، كما جاءت الأنساق الفنية أكثر

إحكاماً ، فبدت كل كلمة موزونة بقياس الأداء والتلقى والتوصيل ، كما جاءت الجملة موجزة تجمع الكثير من المعانى عبر أسلوب تربوى حكيم يضمن يقظة الجمهور وصحوته ، ويبعث فيه الطمأنينة والسكينة ، وبدت التقريرية والمباشرة والإبانة والفصاحة من أهم ملامحها الفنية المميزة لها .

تاسعاً : أن الخطيب ظل قوى الأداء واضح الحجة من بداية الخطبة وحتى نهايتها ، فلا تكاد تحس تراخياً ولا ضعفاً ولا هبوطاً فى مستوى التمكن الخطابى الذى ورد بلا عىّ ولا هزال ، مما يعكس تمكن الخطيب من زمام لغته : مفردات وتراكيب وصيغاً، يحكم سيطرته على معطياتها وموادها ، وهو أمر طبيعى من خلال ما أوحى إليه من ربه من قرآن معجز أعجز القوم عن الإتيان بآية من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

عاشراً : أن الخطيب ظل كاشفاً عن جوهر علاقته بجمهوره منذ بدا شديد الحرص عليه ، وهو ما كشفه ذلك الاستطراد فى مخاطبة الجمهور مراراً ، مرة بعباد الله ، وأخرى « يأيها الناس » وأشد ما بدا الاستطراد ظهوراً عند الموقف الإنسانى العام الذى دارت حوله الخطبة كشفاً عن جوهر العلاقات الإنسانية من خلال التقوى والروابط الروحية بدلاً من العصبيات وصلات الدم كأساس للانتماء .

ومن خلال هذه القسمات الفنية وأشباهها يمكن أن نعتد بخطبة الرسول - عليه السلام - باعتبارها فاتحة الخطابة الدينية فى عصر المبعث من ناحية ؛ ثم باعتبارها تحولاً جذرياً فى فن الخطابة الموروث بوجه عام من ناحية أخرى ، وهو ما يذكرنا بمقولة الجاحظ حول بلاغته عليه السلام من أنه « جانب أصحاب التقعيب ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب والوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، لم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويُسّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولازلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار .. ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ، ولا

أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم » [٨] .

على أن سوق شهادة الجاحظ هنا لا يأتى إلا تأكيداً لما تفرضه علينا قراءة الخطبة مما يكشف عن جوانب من فكره عليه السلام ، ومن ثقافته التى جمع من خلالها المعانى المتفرقة وقد ربطتها الروح الواحدة فكانت المقصد الأساس من ورائها ، وكانت الألفاظ موحية بكل المعانى الرامية إليها ، وكانت كذلك كل ملامح الخطبة سبيلاً إلى استكشاف طبيعة الحقل المعرفى الذى ينطلق من خلاله الخطيب أو يدور فى فلكه حين يحاول توظيف الخطبة من أجله .

ولعل فى خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم - من صور التشريع مابدا جامعاً وشاملاً ، مما يجعله كفيلاً بتجاوز حدود الزمان والمكان عبر كل المستويات النفسية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية فى آن واحد . وكما توقفت الخطبة عند رفض مآثر الجاهلية ، والتنفير من عادات أهلها وقيمهم ، فقد فتحت باباً جديداً فى فن الخطابة ما نظنه - بحال - امتداداً للخطابة الجاهلية ، بقدر ما نعده - بحق - فتحاً جديداً فى الفن الخطابى حيث وضعت الأصول ورسمت المقومات ، فكانت بمثابة توجه خطابى متميز لابد للخطيب أن يقف أمامه طويلاً ، يتأمل ويراجع ، فلعله يكتسب بعضاً من مقومات فن القول كما أبرزتها جوانب تلك الخطبة التاريخية المتميزة التى تظل علامة دالة على وضوح الرسول الذى أداها ، وكذا وضوح الدين الذى ارتبطت به ، مما يجعلنا نستشهد هنا بمقولة الإمام محمد عبده « من هذا نعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامى وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعلقه ، ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة لأن فطرة البشر تطلب دينا وترتاد منه ماهو أمس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها » [٩] .

فهل بدت الخطبة إلا دالة على نفس المسارات التى تُرغب جمهور المخاطبين فى تلقى القوانين وصيغ التشريع والأحكام التى تضبط لهم مقاييس الحياة فى أفضل صورها فكانت - على حد تعبير الإمام - لصيقة بقلوبها ومشاعرها ؟.

هـــوامش الفـــصل الأول

(١) البيان والتبيين ١/١٦٨ ، العقد الفريد ٢/١٥٦ ، مجمع الأمثال للميدانى ١/٧٤ ، الأغانى ١٤/٤٠ ، إعجاز القرآن ١٢٤ ، صبح الأعشى ١/٢١٢ ، جمهرة خطب العرب ١/٣٨ - ٣٩.
الداج : المظلم . تزهر : تتلألأ وتضىء . تزخر : تمتلىء وترتفع .
مدحوه : مبسوطة ، إنما قال مدحاه لمراعاة السجع . الغابر : المقيم .

(٢) الأمالى ٢/٩٣

(٣) جمهرة خطب العرب ١/٥٦.
اللجاجة : تماحك الخصمين وتماديهما . المحالة : الحيلة .
الحكم : الحكمة « وآتيناه الحكم صبيا ».
ويح : كلمة رحمة ، وويل : كلمة عذاب ، وقيل هما بمعنى واحد .

(٤) كثير من خطبهم وردت فى الجزء الأول من (جمهرة خطب العرب لأحمد زكى صفوت ١/٣٦ - ١٥٠).

(٥) يمكن الرجوع إلى نماذج الخطابة الجاهلية وصورها المختلفة فى مصادر نثرية مثل جمهرة خطب العرب، وكذا فى مظان الدرس النثرى الذى توقف عند العصر الجاهلى ومنه كتاب الروائع من الشعر العربى الجزء الأول (المبحث الخاص بالنثر الجاهلى فى ختام الكتاب).

(٦) جمهرة خطب العرب ١/١٥٥-١٥٧
البيان والتبيين ٢/١٥ ، العقد الفريد ٣/١٣ ، إعجاز القرآن ١١١ شرح ابن أبى الحديد ١/٤١ ، تاريخ الطبرى ٣/١٦٨ ، الكامل لابن الأثير ٢/١٤٦ ، سيرة ابن هشام ٢/٣٩٠ .
قالوا فى تثنية رجب وشعبان رجبان للتغليب ، العضل : الحبس والتضييق .
العانى : الأسير .

(٧) من روائع الأدب النبوى (د. كامل الدقس) ص ١٢٠ .

(٨) البيان والتبيين ٢/١٧ .

(٩) الإسلام والرد على منتقديه ص ١٢١ - ١٢٢.

❄ ❄ ❄

الفصل الثانى

فى عصر الخلافة الراشدة

١ - متطلب الفترة

٢ - السعى إلى المثال

رأينا صورة من خطابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتوقفنا عند مساحاتها المختلفة ، بما لها من دلالات خاصة على خصائصه وبيانه وموقعه - عليه السلام - من فن القول ، وملامح بيانه وحكمته بما يكشف جوانب من دوره كنبى للأمه ، ونذير لجمهوره، ومشرّع يستوقفه الكتاب الكريم ، فيحاول تفصيله والإبانة عما جاء فيه مجملاً، ثم تكشف دوره كمؤسس للدولة الإسلامية ، وقائد لها يرسم لقياداتها التالية من بعده الصورة المثلى للحاكم والقائد ، وهو ما كشفته التفاصيل الدقيقة التى حملتها عبارات الخطبة وألفاظها. وبذلك تأسست الدولة الإسلامية ، ورحل حاكمها الأول ولحق بالرفيق الأعلى ، ليأتى من بعده من جيل الصحابة فريق عاشره ، فتعلم منه ، وتأثر بأدبه، وحاول الاقتداء به ؛ فبدأ رحلة الجهاد مع ممارسة دور الحاكم للدولة التى مازالت فى مهدها تحبو ، وهى مرحلة بدت جد خطيرة ، فلأول مرة يعرف المجتمع الإسلامى فكرة « الأمة » ، وتفد عليه معطيات «الدولة» بمفهومها السياسى ، وتبين فيه رموز «المواطنة» وتتضح حاجته إلى « الحكومة المركزية » حاكماً ودواوين وأنظمة ، ولأول مرة يقف « الحاكم » بين «الرعية » يصور قلقه من أعباء التبعة الملقاة على كاهله ، ويستشعر حجم العبء الذى يحس ضرورة تحمله بأمانة ، وربما دعا الرعية إلى مشاركته فى كل أموره طبقاً لمبدأ الشورى الذى ارتسم أمامه من خلال المثل الأعلى قولاً ومسلكاً، ومن خلال ما دعا إليه مراراً النص القرآنى الحكيم .

تلك كانت سمة مواقف الصدّيق - رضى الله عنه - حين أُسند إليه أمر خلافة المسلمين بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعد اجتماع السقيفة ، وإجماع الرعية على هذا الاختيار ، أحس الحاكم المسلم أن الأمر عسير وصعب ، وأن قيادة دولة لا يمكن إلا أن يكون موقفاً خطيراً بكل المقاييس ، خاصة أن الرجل يأتى فى فترة عصيبة أعقبت رحيل نبى الأمة الذى كان يحكم من خلال تعاليم السماء ، إذ كان يُسأل والوحى يجيب ، حتى بلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وترك من بعده رجالاً أشداء ، يدركون أن الخلافة تكليف عَسِر فى تلك الفترة المعقدة من تاريخ الأمة ، وأن الأعباء الجسام تتطلب منهم - على الأقل - الاقتراب من مواقف القدوة العليا التى شخصت فى كل ما صدر عن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم .

ولعل جانباً من هذا الإحساس قد تأتى لأبى بكر منذ أن هيأه الله تعالى لخلافة نبى الأمة حين وقف موقفاً تشيع فيه العزيمة والحكمة حين بلغه خبر وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى بيت عائشة - رضى الله عنها - وهو مسجى [١] ، فكشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه فقبَّله ثم قال : بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ، ورد البرد على وجهه - صلى الله عليه وسلم- ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك ياعمر وأنصت . فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل الناس ، فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا الآية « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » [٢].

يقول من شهد الموقف : والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبى بكر فإنما هى فى أفواههم . ويقول عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد مات [٣].

فعلى الرغم من صعوبة الموقف ، وفداحة الخطب ، أبت حكمة الصديق - رضى الله عنه - إلا تقبله بفصاحة المؤمن الباحث عن الحجة القاطعة من عمق كتاب الله - عز وجل- فكان الرجل منطقى الأداء مع الرعية فى طرح هذا القياس المنضبط ، حين يُطرح بين مقدمات ونتائج تنتهى - فى مجملها - إلى حتمية الموت وعمومه على البشر ، وإلى قصر الخلود علىَ خالق الموت والحياة والموتى والأحياء ، وإلى هذا الاستناد المتعمد إلى الآيات القرآنية المؤكدة لموقفه فى أشد اللحظات حاجة إلى الإقناع .

من هنا كانت حساسية الموقف فى خلافة الصديق - رضى الله عنه - بصفة خاصة، فهو الخليفة الأول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم ؛ الأمر الذى ينعكس فى هيبة الموقف من ناحية ؛ وفى مستوى إدراكه لطبيعة نقائض النفس البشرية حتى لدى الحاكم ذاته ، خاصة حين يأتى بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما تنعكس منه جوانب عبر خطبته - رضى الله عنه - فى المسلمين بعد البيعة مباشرة وفيها يقول :

بعد أن حمد الله وأثنى عليهِ :

« أيهـا الناس : إنى قـد وُلّيتُ عليكم ولست بخيـركم ، فـإن رَيتمـونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فَسَدِّدُونِى ، أطيعـونى ما أطعت الله فـيكم ، فإذا عصيتهُ فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضَّعِيفُ حتى آخذ الحق لهُ ، وأضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ».[٤]

وقال الطبرى : نادى منادى أبى بكر من بعد الغد من مـتوفّى رسول الله - صلى الله عليـهِ وَسلم : لِيُتَمَّ بعث أُسامـة : ألالا يبقينّ بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره ، وَقام فى الناس ، فحمد الله وَأثنى عليه ثم قال :

« يأيها الناس : إنما أنا مِثلكم ، وَأنى لا أدرى لعلكم سَتُكَلِّفُونِى ما كاَن رسول الله صلى اللهُ عليـهِ وسلم يُطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالميـن ، وعصمهُ من الآفات ، وإنما أنا مُتَّبِعٌ ، ولست بمبتدع ، فإن استقمت فتابعونى ، ون زِغْت فَقَوِّمُونِى : وإن رسول الله صلى الله عليـهِ وسلم قُبِضَ ، وليس أحد من هذه الأمة يطلبهُ بِمَظْلَمَة [١] ضَرْبَةٍ سوط فمـا دونهـا ، ألا وإن لى شيطاناً [٢] يعترينى ، فإذا غـضبت فـاجتنبونى ، لاَ أؤثر فى أشعاركم وأبشاركم [٣] ، ألا وإنكم تغدون وتروحـون فى أجل قـد غُيِّبَ عنكم علمه ، فـإن استطعتم ألاَّ يمضى هذا الأجل إلا وأنتم فى عمل صالح فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله ، فسابقوا فى مَهَل آجالكم من قبل أن تُسْلمكم آجالكم إلى انقطاع الأعمال ، فإن قوماً نَسُوا آجالهم ، وجعلوا أعمالهم لغيرهم ، فإياكم أن تكونوا أمثالهم ، الجد الجِدَّ ،

---

(١) الظلامة .

(٢) قال ابن أبى الحديد : وأراد بالشيطان الغضب ، ولم يرد أن له شيطاناً من مردة الجن يمتريه إذا غضب ، ولو كان له شيطان من الجن يعتاده وينوبه لكان فى عداد المصروعين من المجانين؛ وما ادعى أحد على أبى بكر هذا لا من أوليائه ولا من أعدائه .

(٣) أبشار جمع بشر ، وهو جمع بشرة : وهى ظاهرالجلد .

وَالْوَحاَ الْوَحاَ وَالنَّجاء [1] النَّجاء ، فإن وراءكم طالباً حثيثاً [2] ، أَجَلاً مَرّهُ سريع ، احذروا الموت واعتبروا بالأباء والأبناء والإخوان ، ولا تَغْبِطُوا [3] الأحياءَ إلا بما تغبطون به الأموات ».

ومن واقع قراءتنا للخطبة - وله غيرها كثير مع جمهور المسلمين من رعاياه تستوقفنا عدة قسمات على مستوى صياغتها الجمالية شكلاً ، وعلى مستوى مضامينها التى اتسعت مساحتها ، على الرغم من هذا الإيجاز الواضح الذى سيطر عليها وعلى مبدعها .

على أن الإيجاز - فى ذاته - لا يعد مقياساً من مقاييس الضعف الخطابى ، ولا هو دليل على قصور فى ملكة الأداء لدى الخطيب ، بقدر ما يعد انعكاساً أميناً لإيقاع الموقف ذاته ، بدليل ما انصرفت إليه بعض تعريفاتنا البلاغية من أن البلاغة فى الإيجاز غير المخل والإطالة غير المملة ، فكلا الأمرين يبدو مستساغاً لدى الخطيب مما يؤذن بسيطرته على مشاعر جمهوره ، وضمان معايشته لكل ما يقوله ، وإفهام المتلقين كل الحقائق التى يرمى إلى عرضها من خلال تملكه لبؤرة الشعور بما يكفى لضمان نجاح توصيل ما يرمى إليه من وراء خطابته ؛ الأمر الذى لا يكتمل إلا إذا وفق الخطيب فى منهج طرح قضاياه عبر مجموع مستويات جمهوره ، وهو ما عرف - بلاغياً - بمواءمة الكلام لمتقضيات الأحوال أو اتساق المقال مع المقام .

وانطلاقاً من هذه المواقف البلاغية ونظائرها كانت خطبة الصديق رضى الله عنه ؛ وأيضاً كان تمثله لدوره كخليفة أول للمسلمين اشتد عليهم حرصه ، وامتد إشفاقه وخوفه ، فبدا شديد الحساسية فى توجهه إليهم خطيباً وحاكماً ومسئولاً ، وهو ما يجدر أن نحلله عبر عدة مستويات :

أولاً : أن الخليفة هنا قد ارتدى ثوب الواعظ لأمته ، فهو رجل دين قبل أن يكون رجل سياسة ، وهو ينطلق - أساساً - من منظور دينى لا يكاد يتجاوزه أو يتجاهله ، أو

---

(١) العجلة والإسراع ، وحى وتوحى : أسرع ، ووحاه ، عجله،
والنجاء : الإسراع أيضاً .

(٢) سريعاً .

(٣) غبطه : تمنى مثل حاله من غير أن يريد زوال نعمته عنه .

يغفل منه جانباً أو يتخطاه ، فهو رفيق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبر رحلة جهاده ، وهو صدّيقه فى كل ما جاء به ؛ وهو - أيضاً - وثيق الصلة بالمادة القرآنية حفظاً وفهماً ووعياً وإدراكاً وتمثُّلاً ، وهو خبير بمقومات التشريع وأصوله وعياً وتطبيقاً ، وهو ما ينعكس - بالضرورة - فى خطبته التى أبرزته خليفة للنبى - صلى الله عليه وسلم - ، ورجل سياسة يرشد ويوجه ، فكانت الرموز الدينية غالبه على الخطبة على نحو ما يتبدى فى منطقة الإخلاص فى العمل والعقيدة ، وفى حواره المتكرر حول الطاعة التى تترجم هذا الإخلاص وتعكس جوانبه ، وهو تدرج منطقى دقيق بين قياسات العبادات مصنفة بين رموز الإخلاص والصدق ، وبين دلالة الطاعة والتسليم المطلق بقضايا الغيب ، والرضا التام بقضاء الخالق ، والتوقف عند حتمية الموت والتذكير به ، والاعتبار من خلاله، وهو ما رأيناه مطروحاً لدى الصديق - رضى الله عنه - حين بلغه خبر وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فراح - آنذاك - يرصد من صيغ الاستفهام البلاغى ، ومن لغة التقارير الخطابية ما تناوله حول قضية المصير ، بما يبعث على اطمئنان النفس البشرية انطلاقاً من إيمانها الصحيح ، وتوحيدها المطلق لخالقها - جل شأنه - وتأكيداً من خلال مقومات الطاعة التى تصدر عنها ، وهو ما يستطرد الخطيب فى توقفه عنده مراراً على مدار حواره مع جمهوره .

ثانياً : أن الخليفة حين آلت إليه التبعة بدا من أشد الناس إحساساً بثقلها ، وإدراكاً لحجمها فظل يدور فى سياق موقعه كخطيب مؤمن ، تغلب عليه كثافة الحس الدينى ، ويغلف كلامه الحوار القرآنى ، وكأنما تجاوز مرحلة الإحساس الانفعالى بفداحة الخطب ، إلى مرحلة الاطمئنان واليقين الإيمانى الذى يبعثه فى نفسه وعيه بما وعاه صدره من القرآن الكريم ، وتمثله لآياته ، ويقينه بكل ما جاء فيه حول حتمية الموت والمصير، وتأمل صور الحساب وتصانيف مواقع البشر بين الثواب والعقاب والجنة والنار .

ثالثاً : أن توجُّه الخليفة - كخطيب - إلى رعيته يبدو توجهاً دينياً من طراز متميز، فهو يتبع الأسوة الحسنة فيما تعلمه منه صلى الله عليه وسلم من خلال لغة التحميد ومنطق التوحيد ، ثم ما كان من حرص واضح على حسن الختام ، سواء بالتسليم أو الاستغفار والإنابة ، وكلها تدور فى أفلاك دينية تبعث على الاطمئنان النفسى ، وتطرح ضروباً من الهدوء ، وتحكى جوانب من الحرص والأمان بما يضمن صحة العلاقة بين الخطيب وجمهوره على السواء .

رابعاً : أن حوار الخطيب مع رعيته لم يكن ليشعر قارئ الخطبة بأن ثمة توجها من الأعلى إلى الأدنى ، بل بدت الصيغة الخطابية بمثابة طرح متأن لمبدأ المساواة مما يحفز الحاكم إلى إشراك الرعية فى صيغة حكمه وقضاياه ، بل لعله يوقظها ، ويدفعها إلى التنبه المستمر إلى كل ما يقدم عليه من سلوك أو قرار ، وهو ما يصور إيقاع الحس الجماعى لدى الخطيب من ناحية ، ثم يعكس إحساسه الواقعى بخطايا النفس البشرية ونقائصها من ناحية أخرى .

خامساً : أن علاقة الخطيب بجمهوره تبدو علاقة عامة مطلقة لا مجال فيها للتمييز أو التفرقة بين طبقة وأخرى ، فهو ينطلق من واقع قياس إنسانى ودينى واحد رصده إمام الخطباء رسول البشرية - صلى الله عليه وسلم - منذ فسر لهم وحدة الأصل ، ووحدة العبادة ، فإذا بخطبة الصديق - رضى الله عنه - تأخذ نفس المنحى فى مخاطبة الناس ، ومحاولة جمعهم حوله على كلمة سواء ، لعلهم يعون مقولاته ، ولعلهم يعملون بها تطبيقاً عملياً ، ألم يقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أصحابه أنهم « كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، فكان النجم الأول شديد التواضع فى خطبته ، شديد الإحساس بمن حوله ؛ الأمر الذى عكسه المنطلق السياسى الأول فى إدراكه حجم الولاية التى بنى فيها الفعل للمجهول « وُليت عليكم ... » ثم فى إلحاق الموقف بهذا النفى الذى ينفى فيه عن نفسه أن يكون خيراً ممن سواه من الصحابة الكرام ، بل يظل يدور فى منطقة المساواة التى أراد من خلالها إشراك جمهوره معه فى تحمل أعباء التبعة .

سادساً : تكاد لغة الخطيب تشى بمنطق الحذر والحرص ، ويشيع من خلالها ذلك الإدراك الواعى لحجم التبعة ، وهو ما يجعله يتوقف مراراً مستطرداً حول نقائص النفس البشرية، وربما أراد أن يشير إلى مفارقة حتمية بين موقعه كخليفة ، وبين موقع رسول الله- صلى الله عليه وسلم - كنبى يوحى إليه ، فما كان ينطق عن الهوى . وهى مفارقة تتبعها مفارقات أخرى ، يتوقف عندها حين يفصل بين الحق والباطل خشية الميل البشرى إلى أى من صور الباطل ، وهو ما يدفع الخطيب لأن يكون شديد الأمانة مع نفسه ، عنيف اللهجة مع جمهوره فى آن واحد، فإذا به يطلب منهم الإعانة والتوجيه ، فلا يتردد حرجاً فى إشراك الرعية فى الحكم، ألم يكن إلى جوار رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وقد أمره ربه أن يشاورهم فى الأمر ، فإذا عزم فليتوكل على الله ؟.

من هنا كانت استعانة الخطيب بصيغ الشرط الدالة على أى من اتجاهات الصواب أو مصادر الزيغ ، وهو ما دعاه إلى تنويع الصيغ مع توحد الدلالة فى مثل قوله :

فإن رأيتمونى .. وإن رأيتمونى .. ليردفها مردداً نفس المستويات الشرطية : أطيعونى ما أطعت الله فيكم .. فإن عصيت فلا طاعة لى عليكم ..

ولعل هذه الصيغ المكررة تحمل من الشحنات النفسية لدى الخطيب أشياء كثيرة تحكى حرصه ، وتصور حذره ، وتعكس مدى إحساسه - كما رأينا - بحجم المسئولية فى فترة بدت من أشد فترات التاريخ السياسى حرجاً وحساسية .

سابعاً : وتدرجاً من توقفه عند صيغ الشرط الدالة ينتقل الخطيب عبر مستويات أكثر عمقاً تسهم فى استشعار جوهر البعد السياسى لحكمه ، فإذا هو يربط المنظور السياسى - كما فهمه - بالشريعة ومقومات العقيدة ، فيعود إلى ترديد المقولة الدينية التى تنتهى إلى أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .. » وهو ما يصور وعى الخطيب بحقائق دينه ، وفى انطلاقه من هذا المنظور البشرى الرائع الذى لا يعرف فى الحكم قهراً ، ولا استبداداً ، ولا طغياناً ، ولا تفويضاً ، ولا جبروتاً ، فهو حكم إسلامى صريح بكل مقاييس أصوله وفروعه .

ثامناً : ومن واقع ربطه الحكم السياسى بمقومات الشريعة ينطلق الخطيب عبر مستويات أخرى فى محاولات لبعث الاطمئنان فى نفوس الرعية ، لعلها تهدأ إلى مستقبل حكمه ، ولعله - بدوره - يضع لها القواعد ، ويدقق فى رسم الأصول الكبرى التى يحسن أن تتبع ، فإذا بالصديق - رضى الله عنه - يطمئن الضعفاء حتى لا يخافوا بطش الأقوياء ، وهو - كحاكم - يبدو دقيق الحس ، كثير النظر فى أمور رعاياه ، وهل هناك أعمق من مثل هذا الإحساس الخاص بمخاوف الضعفاء من أى تغيير فى نظام الحكم.

من هنا كانت دقة الصياغة مقرونة بحكمة التوجه إلى هذا الفريق من الرعية ، فكان صمام الأمان لطمأنة نفوس الضعفاء ، ما يحمل فى طياته تلميحاً وتصريحاً بث الخوف فى نفوس الطغاة ، فبدا القياس شديد الدقة محكم الأداء من خلال المستويين : فعلى الضعيف أن يطمئن إلى قياسات الحكم الجديد ، وألا يستسلم ليأس بعد انتهاء

عصر الرسالة ، فهناك خلافة تتبع نفس الخطى وتترسم نفس السبل ، وتحاول أن تأخذ بأيدى الضعفاء وتنتصف لهم من الأقوياء ، وهى تبحث - دأباً - عن استمرار المثل الأعلى كما كان ماثلاً على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعلى القوى أن يحذر بطشة الحاكم الذى لابد - بالضرورة - أن يكون أقوى منه فى حكمه ، ولابد أن تأخذه الشدة فى معاملة الطغاة ضماناً لشيوع العدل المنتظر على يد الخليفة الذى أسلمته الرعية مقاليد حكمها ، وعهدت إليه بتسيير أمورها .

تاسعاً : ولقارئ الخطبة أن يستشعر جوانب الحس السياسى ممزوجة فى كل جملة- تقريباً - بالحس الدينى ، فلم يكن الخطيب ليفصل بين طبيعة دوره كرجل دولة ودين معاً، إذ هو يصدر عن الأمرين جميعاً مما يطمئن رعاياه إلى جوهر عدالته ، ونزاهة حكمه ؛ خاصة أنه حين تولى الأمر بدا فى حاجة إلى طرح هذه الأسس وترسيخ تلك المقومات ، فلكل من رعاياه أن يراجع نفسه فى ظل المتغير السياسى والمتوقع والمرتقب فى نظام الحكم الجديد.

وإذا بالصديق - رضى الله عنه - يتحول أثناء حواره لجمهوره إلى واعظ ومرشد ، يحاول الاقتراب من دور الزاهد الأول - صلى الله عليه وسلم - فيقف بين الرعية واعظاً، يستمد مادته من الأصل الأول من الكتاب الحكيم ، ثم يثنى بالمصدر الثانى من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يستوقفنا درساً وتحليلاً فى قراءتنا لخطبته الثانية والتى قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه أيضاً :

« إن الله عزَّ وجلَّ لاَ يَقْبَلُ من الأعمال إلا ما أُرِيدَ به وَجْهُهُ ، فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أَخْلَصْتُمْ لله من أعمالكم فَطَاعَةٌ أتيتموها ، وَحَظ ظَفِرتُمْ به ، وَضَرَائِبُ أديتموها ، وَسَلَف قدمتوه ، من أيام فانية لأخرى باقيةٍ ، لحين فقركم وحاجتكم، اعتبروا عِبادَ الله بمن مات منكم ، وَتفكروا فيمن كان قبلكم أين كانوا أمسِ ؟ وَأين هم اليومَ ؟ أين الجبارون ؟ وَأين الذين كان لهم ذِكرُ القتال والغَلَبَةِ فى مواطن الحروب ؟ وقد تضعضع بهم الدهر ، وصَاروا رَميماً ، قد تركت عليهم القالاتُ [1] الخَبِيثَاتُ ، وإنما

(١) القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة : فى الشر .

الخبيثاتُ للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وَعمَروُها ؟ وقد بَعِدُوا ، ونُسِي ذكرهم ، وصاروا بلا شيء ، ألا وإن الله قد أبقى عليهم التَّبِعَاتِ ، وَقَطعَ عنهم الشهواتِ ، وَمَضَوا وَالأعمال أعمالُهمْ ، وَالدنيا دنيا غيرِهم ، وَبقينا خَلَفاً من بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نَجَوْناَ ، وَإن أغتررنا كنا مثلهم ، أين الوِضاء[1] الحسنَةُ وجوهُهم ، المُعْجَبُونَ بِشَبَابِهِم ؟ صاروا تراباً ، وَصار ما فرطُوا فيه حسرةً عليهم ، أين الذين بنوا المدائن وَحصَّنوها بالحوائط ، وَجعلوا فيها الأعاجيب ؟ قد تركوها لمن خلفهم ، فتلك مساكنهم خاويةً ، وهم فى ظُلُمَاتِ القبور ، هل تُحِس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً[2] ؟ أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم ؟ وقد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدَّموا ، فَحَلُّوا عليه ، وأقاموا للشَّقْوَةِ وللسعادة فيما بعد الموت ، إن الله لا شريك له ليس بينه وبين أحد من خلقهِ سببٌ يعطيه به خيراً ، ولا يصرف به سوءاً إلا بطاعتهِ واتباع أمره ، واعلموا أنكم عبيد مَدينون ، وأن ما عنده لاَ يُدْرَك إلا بطاعته ، أما وإنه لا خيرَ بخير بعده النارُ ، ولا شَرَّ بِشَرّ بعده الجنة[6]

مما قد يخلص بنا من قراءتها إلى عدة نقاط تفرضها علينا القراءة والتأمل لما وراءها :

الأولى : أن الخطيب قد استند - على عادته - إلى المواد الدينية ، وانطلق من واقع وعيه بالمعجم الإسلامى فى حواره الدينى ؛ الأمر الذى يطمئن رعاياه إلى حكمه ، وهل هناك أفضل من حاكم يخشى الله ويتقيه فى رعاياه ، ويراقبه فى سلوكه حتى يصبح واعظاً فى مثل هذه السياقات المتميزة .

الثانية : أن الحوار الدينى قد توزع بين عموم الصياغة وبين تخصيص الأمر من خلال التوجه إلى الجمهور عبر منطقة الصدق فى العمل ، وهو قياس منطقى منضبط يطرحه الخطيب فى دقة بالغة بين مقدمات ونتائج ، وانطلاقاً من قاعدة الجزاء باعتباره من جنس العمل ، فإذا كان الخالق - سبحانه - لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه الكريم ، فمن صدق التوجه البشرى أن يتلمس هذا الوجه الصحيح ليصدر عنه سلوكاً

---

(١) الوضاء : جمع وضئ وهو الحسن والنظيف .

(٢) الركن : الصوت الخفى (وهو هنا يقتبس الآية القرآنية) .

وقولاً ، وهو ما يضمن طهارة المجتمع الإنسانى من آفة النفاق الاجتماعى بكل صوره ومقوماته بين الحاكم والمحكوم ، وبين الناس جميعاً .

الثالثة : أن الواعظ يحاول تبرئة نفسه من أدنى الشبهات فى علاقته برعاياه ؛ خاصة حين ينص على أن ما قدمته الرعية من صور الطاعة المتعددة إنما يقصد من ورائها تجاوز فناء الدنيا وغرورها ؛ إلى انتظار الجزاء الأوفى فى دار البقاء من الخالق الأعلى سبحانه ، وهو ما يدفع الواعظ إلى مزيد من الأصرار على إرشاد الرعية من خلال الإكثار من الطاعة إلى مزيد من الأصرار على إرشاد الرعية من خلال الإكثار من الطاعة فى هذا السياق الخاص المتميز بين العبد وخالقه .

الرابعة : أن الواعظ يتوقف طويلاً امام قضية المصير التى يتساوى أمامها الحاكم والمحكوم على السواء ، وهو اقتداء واضح بما كان من طرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصول المساواة انطلاقاً من وحدة الخالق سبحانه ، وكذا وحدة أصل المخلوق ، والنص على التراب أساساً لهذا الأصل ، مما رأيناه محكياً بالتفصيل عبر خطبة الوداع ، وكأن الصديق قصد إلى التوقف عند قضية المصير توقف الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - عند قضية بدء الخليقة وتوحد أصل الإنسان ، وهنا ترى الواعظ يقف بين جمهوره مقنعاً ومؤيداً مقولاته بالأدلة الدينية الدامغة مما يؤكد من خلاله ما يقوله ويدعو إليه صراحة قاصداً إلى تأكيد العظة والاعتبار من خلال ما وقع من ذكره لأمر السابقين ، وهو ما يطرحه - أيضاً - موزعاً بين الإنشائية والخبرية حيث شلغته الصيغ الاستفهامية من منظور الدلالة الاستنكارية التى تؤثر - بطبيعتها - فى جمهوره ، وتقف إلى جوارها الصيغ الإخبارية الصريحة ممزوجة بالأمر بالتفكر والتدبر فى كل مقومات الكون ، واستطلاع كل أخباره وهو ما يزداد تأثيره حين يستشهد الخطيب بآية قرانية ، ألم يقل الجاحظ فى « بيانه وتبيينه » أن الخطيب إذا ما أراد أن يزين قوله فبآى من كتاب الله؟.

فإذا كان الخطيب هنا رجل دين فهو أولى بتأكيد كل ما يطرحه من واقع استشهاده بالنص القرآنى الذى توج به الصديق رضى الله عنه استفهاماته وأخباره على السواء .

الخامسة : فإذا ما قصد الخطب إلى تأصيل القيم الدينية نراه يعود إلى تناول قضية التوحيد مردداً ومؤكداً ؛ وعندئذ يتوقف عند طبيعة العلاقة بين الخالق الأعلى

والمخلوق الأدنى ، ليضع الفواصل ، ويحدد طبائع الخطوط الفاصلة بين الطاعة والمعصية وهو ما قد يسجل انشغال الخطيب بهذا المبدأ فى توجهه إلى الرعية مرة حاكماً ، وأخرى واعظاً وموجهاً .

السادسة : فإن شئنا الربط بين الخطبتين السياسية والدينية من خلال القاسم المشترك بينهما وجدنا أوجه التشابه والتقارب قائمة من خلال وحدة المصدر ، ولقاء الوظيفة والهدف ، وتشابه الواقع النفسى للخطيب ، وحتى وحدة الجمهور الذى يتعامل معه، فما زال الأمر مرهوناً بعصر صدر الإسلام ، وفيه غلبت المسحة الدينية على القول كما غلبت على السلوك ، مما يبرر حتمية هذا التشابه فى قياسات الأنماط الخطابية سياسية كانت أو دينية من منطق السعى الدائب وراء المثال أساساً .

فإذا انتقلنا إلى الموقف الأخير فى خطابة الصديق - رضى الله عنه - فى حدود هذا البحث وجدناه يترك من وصاياه ما يكشف لنا جوانب من موقفه كقائد حربى ورجل مقاتل ، وعى الدرس جيداً من واقع صلته بالقائد الأول عليه السلام فى غزواته المشهورة مع معسكر الشرك فى مكة ، فعرف الصديق كيف يتعامل مع خصومه ، والخصومة هنا تتعلق بمصلحة الأمة ، وتعكس تبعة قيادة شعب ، وتحكى قصة مستقبل جمهور وواقع رعية ؛ الأمر الذى تكشفه لغة الخطيب - رضى الله عنه - حين أوصى أسامة بن زيد وجنده حين سيَّره إلى مشارف الشام قائلا .

« يا أيها الناس : قِفُوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تَغلُّوا[1]، ولا تغدروا [2] ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تقعروا [3] نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولابعيراً إلا لمأكلة [4] ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم لهُ ، وسوف تَقْدَمُون عَلَى قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء ، فاذكروا اسم الله عليها ، وَتَلْقَوْنَ أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفِقُوهم [5] بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله[6] ».

---

(١) غلَّ يغُلُّ كنصر : خان ، والغل الحقد .

(٢) غدره وغدر به كضرب وسمع وبصر .

(٣) قعر النخلة كمنع فانقعرت قطعها من أصلها فسقطت .

(٤) المأكلة : ما أكل

(٥) خفقه : ضربه بشىء عريضه .

ولنا أن نتصور - بداية - إمكانية استشعار القائد قوته وقوة جنده ؛ وهى القوة المنضبطة التى لا تتجاوز أوامر الدين ولا تخالف تعاليمه ، ولا تتناقض مع ما جاء به من سماحة القيم ورفعة الخُلقُ ، فإذا بالقائد يأمر جنده وقياداته بأن يحسنوا السلوك مع رعايا الأقاليم المفتوحة ، وألا يغريهم النصر فيتحولوا إلى طغاة ، ومن ثم راح يطلب منهم ألاّ يخونوا ، أو يغدروا ، أو يمثلوا بقتيل ، أو يقتلوا طفلاً صغيراً ، أو شيخاً كبيراً ، أو امرأة ، أو يفسدوا زرعاً ، أو يستحلوا مالاً إلا لمأكلة ، أو يتعرضوا لرهبان النصارى ... إلخ . فهل هناك من الأبعاد الإنسانية الرفيعة ، والقيم الدينية الموجبة أكثر مما تجمعة هذه الوصايا بهذه الكثافة وذلك العمق ؟ ، لقد كنا نندهش ونُبهر أمام إنسانية الفارس القديم حين راح « يعف عند المغنم » فما بالنا بالفارس المسلم حين تلتقى فى شخصه كل هذه الملامح وتجتمع كل هذه الصفات ، خاصة إذا وعاها وصدر عنها صدورها عن الصديق رضى الله تعالى عنه .

وتكشف خطابة القائد ووصاياه عن أبعاد الروح الإسلامية سماحة وكرم خلق ، خاصة فيما جاءت به من رفض لمنطق العدوانية والقسوة والقهر، ذلك أن الهدف من الفتوح يظل بمثابة ضرب من الجهاد المقدس فى سبيل نشر دين الله والرد على خصوم الدعوة ممن حاولوا النيل منها ، وإذا بالوصايا العشر تكشف جوانب من هذا الجوهر ، وتعكس روح الخليفة فى معاملة من هم خارج رعاياه ، وهو ما يكمل به صوره مسلكه مع الرعية كما عرضنا له من قبل .

وبذلك يتكشف البعد الثالث من مفتاح شخصية الصديق رضى الله عنه ، فكما رأيناه حاكماً واعظاً رأيناه هنا قائداً من طراز فريد ، يختار لقيادة جيوشه من يأتمنه على جنده ، وعلى رعايا الأقاليم المفتوحة فى آن واحد ، وهو اختيار يستريح إليه ؛ بدليل ما يوجهه من خلاله إلى جنده ، وإن وردت صياغة الوصايا بشكل جماعى ، فهو توزيع للتبعة كما اعتادها الحاكم فى حكمه ، فما كان ليؤثر نفسه بالسلطة ، وما كان يرضى لقائده إلاأن يكون كذلك .

وتبدو الوصايا غاية فى الإيجاز ، وهو مطلب بلاغى تميزت به خطابة الصديق -فى مجملها - أيضاً ، ولكنه الإيجاز الذى يحمل من التفاصيل ما يكشف أبعاداً إنسانية وأخلاقية ودينية وسياسية عميقة

فعلى المستوى السياسى راح ينهى عن الخيانة سواء فى ذلك خيانة القائد لأمانة القيادة ، أو خيانة الجند لما أمنّهم عليه قائدهم ، وهو يوسع من دائرة الأمانة كمطلب أساس من مطالب الإيمان سواء فى الحرب أو فى غيرها ، أو حتى فيما بعدها ، فنهاهم عن أن يغلوا فى الغنائم ، وهو ما يتسق - بالطبع - مع منطق الآيات القرآنية الداعية إلى الصدق والأمانة ، وهو ما سبق أن عرضنا جوانب منه فى خطبة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفى نفس المستوى راح ينهى عن الغدر مؤكداً بذلك منطق الأمانة من ناحية، وداعياً إلى شجاعة مواجهة الخصم من ناحية أخرى .

وعلى المستوى العقائدى نجده وقد نهى الجند عن التعرض للنصارى فى صوامعهم، وهويترك لهم حرية العقيدة والفكر ، دون عدوانية مطروحة من أى نمط ، وكأنه يتخذ من أصول نشر الدعوى الإسلامية قيمة متميزة ، إذ يرفض التعرض لهم طالما ظلوا بمنأى عن التعرض لعقيدة المسلمين وشريعتهم ، وهو بذلك ينفذ - بأمانة - تعاليم السماء « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرداقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » وهو يتخذ - أيضاً - من السياق القرآنى له هادياً « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون »(٨) .

ويكشف القائد بوصيته هذه عن قمة التسامح الذى يدعو إليه دينه ، ويبين ثقته فى انتشاره دون قهر ، كما يكشف عن تمثله لدور القائد الملتزم ، وكيف يحرص على تعليم جنده أصول التعامل مع أهل الديانات الأخرى إذا ما ظلوا على ما فرغوا أنفسهم له - على حد تعبيره - فى ثنايا وصاياه .

وعلى المستوى الإنسانى العام يوصى الحاكم قائده وجنده بألا يمثلوا بقتيل ، وكأنما دعاهم إلى مطلق الرحمة والرأفة بكل من قُتل ، كما دعاهم من قبل إلى الرحمة بالأحياء حين خص منهم الأطفال والشيوخ والنساء وهم ضعاف ، فكانت دعوة إنسانية نبيلة تمثل - أول ما تمثل- كرم الإسلام ، وتصور - أول ما تصور - وعى القائد بتعاليمه خاصة حين اختار للرحمة أهلها وأولى الناس بها من الأبرياء والضعفاء ممن لا يستطيعون مقاومة ولا يتحملون حرباً ، فمن حق هؤلاء جميعاً أن يعيشوا فى غير فزع أو خوف ، وهو ما

ضمنته لهم الوصية من واقع هذا التصنيف لطبقاتهم ، ومن قبيل الحرص الخاص عليهم ، وهو ما يذكرنا بجانب من وصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - حول أمر النساء بصفة خاصة حين حدد موقعهن من عالم الرجال .

وعلى المستوى الاقتصادى نهى القائد قائده وجنده عن كل صور الإفساد الاقتصادى مصوراً ما سيلقاهم من صور الحياة وكثرة مصادر الخير فيها ، فنهاهم عن قطع النخل أو إحراقه ، كما نهاهم عن قطع ما أثمر من الأشجار أو ذبح الحيوانات من قبيل الأذى أو نشر الفوضى إلا ما كان لحاجة منهم إلى طعام فهو مباح لهم .. .

وجميعها صور سلوكية تعكس بوضوح منطق الرحمة الذى أخذ به الحاكم نفسه ، مما لا يتنافى مع منطلق شدته وقسوته مع المفسدين فى الأرض ، كما حدث فى حروبه لأهل الردة، وكأن الوصايا جاءت توكيداً للمطلب الدينى بتعمير الأرض حتى ليزرع فيها الإنسان الفسيلة التى فى يده حتى ولو قامت الساعة على نحو ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت الدعوة هنا مكررة إلى ضرورة إعمار الحياة واستمرارها ، كما كانت رفضاً مطلقاً لكل صور الفوضى والتخريب والدمار ، وهو احتفاظ للأرض بما عمَّرها به الخالق - سبحانه - من شتى النعم ، ودعوة إلى الحفاظ على النعم تلك مهما كانت قوة الفاتحين أو قسوتهم فما كان الفتح الإسلامى فتح طغاة ولا ارتبط بمنطق بغاة بقدر ما صدر عن منطق المجاهدين الذين ينشرون العقيدة ، ويدفعون عنها أذى خصومها فحسبهم هذا من حركة جهادهم الكبرى .

ثم يأتى الفاروق فيكمل مسيرة الصديق - رضى الله عنهما - ويعد ضمن حسنات الصديق أن قرَّب الفاروق إليه ليكون خليفة المسلمين من بعده ، فإذا بعمر يصبح واعظ الأمة بعد رحيل الصديق ، ويحمل التبعة التى تزداد ثقلاً مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، ومع تعدد ولاياتها وأمصارها ، ويتسع قياس التبعة كلما استشعرها عمر منذ راح يخشى أن تكسر ساق شاة بالعراق فيسأل عنها عمر ، وإذا بالرجل يحاول تأديب الخارجين على القيم الإسلامية ، وينهض بدور الحاكم المسئول عن نشر الفضيلة بين رعاياه، وربما كان فى حبسه للحطيئة ما يشى بذلك ، حتى إذا أخرجه من سجنه اشترط عليه ألا يعود إلى ديدنه من إثارة العصبيات الجاهلية التى قضى عليها الإسلام ، وألا يتعرض لأعراض القوم فى هجائياته (٤) .

وهى صور هامة تسهم فى الاقتراب من مفتاح شخصية عمر ، ولها أشباه كثيرة ترسم بقية جوانب تلك الشخصية الضخمة التى تولت أمر الدولة الإسلامية ، والتى توقف أمامها الأستاذ العقاد طويلاً فى سيرته المشهورة حول « عبقرية عمر » ليرى من معالم تلك الشخصية - وهى كثيرة - ما يجعلها نسيج وحده إذ رآه ممتازاً بتكوينه وصفاته ورأى الذين يعرفونه أهيب له من الذين يجهلونه ، فهى هيبة تحكى قوة النفس والحماسة الدينية ، وشدة الخشوع لله ، مع فراسة عجيبة ، وذكاء مفرط ، فنحن أمام رجل قوى وعظيم ، وأمام طراز فريد من طرز الرجال التى لا نعرف تناقضاً فى خلائقها بحال ، فكان عمر عادلاً وكان رحيماً ، وكان غيوراً وكان فطناً ، وكان وثيق الإيمان ، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية [٩] فهذه بعض من كل عظيم يتعلق بملامح شخصية عمر كما حكاها العقاد حين أراد أن يقترب من أعماقه فى عبقريته ، ولنا منها - هنا - ما يسهم فى إفادتنا فى التعرف على صورة الخليفة الثانى الذى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه لأن يعز به الإسلام كواحد من العمرين فى صدر الدعوة ، فاستجاب له ربه وأسلم عمر لتزداد فى أعين الناس هيبته ، وليعلن من قوته جانباً أمام أشرار مكة وعتاة الظلم فيها ، منذ راح ينذرهم بقولته المشهورة « من أراد أن تثكله أمه أو يؤتم ولده فليلقنى من وراء هذا الوادى » يوم أن أراد الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

وكثيرة هى مفاتيح تلك الشخصية التى قادت الدولة الإسلامية عبر حركة جهاد كبرى فتحت فارس والشام ومصر ، وجمعت إلى متانة القيادة وروعتها فصاحةً وبياناً جعلت من الخليفة القائد خطيباً مفوها ، بلغ من البيان مبلغاً عالياً ، وحقق فى البلاغة والفصاحة منزلة بارزة رفيعة ربما عكس منها جانباً ما رواه الجاحظ مما قيل حول عمر وعرف عنه من أنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شِدقَيهْ شاء [١٠] .

إذ تبدو مثل هذه الفصحاة - بلا شك - معياراً من معايير نجاح الخطيب ، ومؤشراً من مؤشرات سيطرته على جمهوره ، وقربه من قلوب سامعيه وعقولهم على السواء .

ومن الطريف أن تبدو هذه الشخصية على درجة واضحة من عمق اليقين والإيمان ، مما تحكيه لنا قصة إسلامه - وهى معروفة - ، إلى ماتلاها من أخبار حوله ، تؤكدها خطابته الدينية التى يمكن أن نقف عن جانب منها فى وعظه وإرشاده للناس حيث قال فى إحداها :

« إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر ، واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا من غير مسألة منكم له ، ولا رغبة منكم فيه إليه ، فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً ، لنفسه وعبادته ، وكان قادراً أن يجعلكم أهون خلقه عليه ، فجعل لكم عامَّةَ خلقه ، ولم يجعلكم لشىء غيره ، وسَخَّرَ لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليكم نِعمَهُ ظاهِرَةً وبَاطِنةً ، وحملكم فى البرّ والبحر ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ، ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ، ومن نعم الله عليكم نِعم عَمّ بها بنى آدم ، ومنها نِعم اختص بها أهْلَ دينكم ، ثم صارت تلك النعَم خواصُّها وعوامُّها فى دولتكم وزمانكم وطبقتكم ، وليس من تلك النّعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصَّة إلا لو قُسِم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها ، وفَدحَهم حقها إلا بعوْن الله مع الإيمان بالله ورسوله ، فأنتم مُسْتَخْلفَون فى الأرض ، قاهرون لأهلها ، قد نصرالله دينكم ، فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمَّتان ، أمَّة مستعبَدَةَ للإسلام وأهله ، يتجرون لكم ، تستصفون [1] معايشهم وكدائحهم ورَشْحَ جباههم ، عليهم المئونة ولكم المنفعة ، وأمة تنتظر وقائع الله وسَطَواته فى كل يوم وليلة ، قد ملأ الله قلوبهم رعباً ، فليس لهم مَعْقِلٌ يلجأون إليه ، ولا مَهْرَب يتقون به ، قد دَهمَتْهُم جنود الله عز وجل ، ونزلت بساحتهم مع رَفاغة [2] العيش ، واستفاضة المال ، وتتابع البعوث ، وسَدّ الثغور بإذن الله فى العافية الجليلة العامة ، التى لم تكن هذه الأمة على أحسن منها منذ كان الإسلام ، والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد ، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكرُ الشاكرين ، وَذِكْرُ الذاكرين ، واجتهادُ المجتهدين ، مع هذه النعم التى لا يحصى عددها ، ولا يقدرُ قدرها ، ولا يستطاع أداء حقها ، إلا بعون الله ورحمته ولطفه . فنسأل الله الذى لا إله إلا هو ، الذى أبلانا هذا ، أن يرزقنا العمل بطاعته ، والمسارعة إلى مرضاته . فاذكروا عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفى مجالسكم مثنى وفرادى فإن الله عز وجل قال لموسى : « أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَ كِّرْهُمْ بأَيَّامِ اللهِ » وَقال لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وَاذكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قليل مُسْتَضْعَفُونَ فى

(١) استصفى الشىء : أخذ منه صفوه .

(٢) الرفاغة والرفاغية : سعة العيش والخصب والسعة .

الأرْضِ » فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خيرَ الدنيا على شُعبْة من الحق تؤمنون بها ، وتستريحون إليها ، مع المعرفة بالله ودينه ، وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ، ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة ، وأعظم الناس بالله جهالة . فلو كان هذا الذى ابتلاكم به لم يكن معه حظ فى دنياكم . غير أنه ثقةٌ لكم فى آخرتكم ؛ التى إليها المعاد والمنقلب ، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه ، كنتم أحرياءَ أن تَشحُوا على نصيبكم منه ، وأن تُظهِروُه على غيره فَبَلْهَ [1] ما أنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا ، وكرامة الآخرة ، أو لمن شاء أن يجمع له ذلك منكم . فأذكركم الله الحائل بينكم وبين قلوبكم ، إلا ما عرفتم حق الله فعَمِلتم له ، وقَسَرْتم أنفسكم على طاعته ، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لزوالها ولانتقالها ، ووجلاً من تحويلها ، فإنه لا شيء أسلب للنعمة من كفرانها ، وإنّ الشكر أمنُ للغِيرَ ، ونماء للنعمة ، واستجلاب للزيادة ، وهذا لله على من أمركم ونهيكم واجب» [11] .

فإذا اتخذنا من الخطبة - هنا - نموذجاً من الخطابة الدينية لعمر تراءت لنا جوانب شتى من فصاحته وبلاغته تحكيها طبيعة أدائه وأساليب المعالجة إلى جانب الموضوع الذى أدار حوله الحوار من خلالها.

فكما رأينا فى مواعظ الصديق - رضى الله عنه - من إيجاب الطاعة والدعوة إليها نجد الشكر عند عمر محوراً لخطبته ، وأساساً لموعظته للناس ، وهو موقف ربما دفعه إليه نجاحه فى فتوحاته الإسلامية التى زادت من مساحة الدولة عبر الأمصار المفتوحة ، وأوجبت على المسلمين المزيد من شكر الله عل نعمه وفضله ، فبدأ الفاروق خطبته بداية دينية غلب عليها المنطق الذى يسهل اقتحام العقول والسيطرة على الوجدان من خلالها ، فهو يبدأ بطرح صيغة توكيدية يبرزها وجوب الشكر من قبل العبد للمنعم على كل نعمه، وكيف أوجب المولى - سبحانه- على عباده شكر أنعمه « لئن شكرتم لأزيدنكم .. » «وإن تعدوا نعمه الله لا تحصوها ... ».

فإذا بالخطيب يستهل موعظته بالاقتباس المباشر من نص الكتاب الكريم ، وهو ما يبدو أشد تأثيراً فى تمكنه من نفوس جمهوره ، وأعظم وقعاً فى بيان المنطلق الدينى

---

(١) بله : اسم فعل بمعنى دع واترك .

لخطابته ، وإذا الخطيب يردد ضمائر المخاطبين مذكراً ، ومحذراً ، ومؤكداً ، فيذكر البشرية كلها بفضل الخالق فى تكريم الإنسان على بقية الكائنات التى سخرها الخالق لخدمته ، وهو حوار منطقى تغلب عليه فيه الحجة ، ويشيع من خلاله السيطرة على الدليل والتمكن من البرهان ، وهو انطلاقه دينية وانشغال فكرى عبر آيات الكتاب الكريم ، اتخذ منها الخطيب هادياً ونبراساً يبنى على أساس منها محاور خطبته .

وتقوده منطقية الأداء إلى محاولة تصنيف تلك النعم بين خاصّها وعامّها : عام للبشر جيمعاً ، وخاص لأهل دينه من المؤمنين بالله ورسوله ، أولئك الذين استخلفهم ربهم فى الأرض ، وأعز بهم دينه ، وقهروا دولة الظلم وأذلوا عتاة البطش ، فكان الله ناصرهم فى فتوحاتهم مما جعل الخطيب يذكر نفسه وجمهوره بقيمة كل من تلك النعم فى سياق خطبة الشكر التى دارت حوله ، وراحت تجمع من صور الأداء ما يكمل ضرورته .

ومن أوجه التمايز هنا ما نجده فى الخطبة فى تحديد لموضوعها مما جعلها محكمة البناء الذى دارت حوله كل عباراتها وألفاظها ، وكأنما جعل الخطيب غاية حواره مع جمهوره ذلك التوجه إلى ضرورة شكر الخالق ، مما ينطوى تحته معان كثيرة تحسمها الجمل قاطعة الأداء منذ انتشار الصيغة التوكيدية التى استهل بها كلامه، إلى معاودة التوكيد لتحقيق الفعل : [إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر] ؛ وكأنه شاء أن يطنب ، ويطيل ، طالما كان فى موقع المذكّر بحجم النعمة ، والداعى إلى ضرورة الشكر عليها ، فيذكر المسلمين بفضل الله عليهم ، فيما كرمهم به من خير الدنيا والآخرة، بعد أن خلقهم وميزهم على بقية مخلوقاته ، وهو فى هذا كله يستوحى من المعانى القرآنية ما جعله معجماً أمامه ، يفيد منه ولا يكاد يغادره إلا إلى غيره من معان قرآنية أيضاً ، وعندئذ تزداد كثافة الاقتباس القرآنى لدى الخطيب ، فتتلاحق عنده الآيات القرآنية ، وتتوالى الصيغ حول الموضوع الواحد الذى اختاره مجالاً لخطبته ومحوراً لموعظته .

وتزداد الصورة عمقاً ، ويبدو الموقف أكثر خصوصية حين يتوقف الخطيب أمام ازدواجية النعم على المسلمين بخاصة ، وهنا تغلب على الخطيب قدراته المنطقية ، ويتكشف تميزه العقلى فى طرح المفارقات ورصد الموازنات بين الأشياء ، فقد قسم النعم إلى عامة وخاصة ، وجعل المسلمين من أهل النعم العامة والخاصة جميعاً ، وكل نعمة

منها تستوجب الشكر من أهلها ، مما يجعل مسئولية المسلم إزاء الشكر تزداد حتمية ووجوباً عن غيره من عامة البشر .

ويستمر التدرج المنطقى لتعدد أوجه النعم ، وتمتد الصورة عبر حركة الفاتحين الذين استخلفهم الله لنشر الحق وإزهاق الباطل وأهله وأرضه ، حين فتحوها باسم الإسلام، وهو رصد آخر لطبائع النعم ، وتسجيل لموجبات الشكر والثناء على صاحبها الأعلى سبحانه وتعالى .

وتشع الخطبة بالمعانى الدينية المكثفة ، وتتخذ مادتها من المعجم الإسلامى عبر افتتاحها وختامها ومحتواها ، فهى انعكاس لاقتباس الآيات القرآنية التى تؤكد المفاهيم، وتتوقف عندها طويلاً رصداً وتأكيداً وكما رأينا فى مسلك الصديق - رضى الله عنه - قائداً ، نرى - هنا - عند عمر - رضى الله عنه - فى نفس المسار ، وهو يؤمر على الجيش أبا عبيدة بن مسعود ليقول له « اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف » (١٢)

وهو ما تكتمل صورته من واقع وصيته الأخرى له حين قال :

« إنك تقدم على أرض المكر والخديعة ، والخيانة والجبرية ، تقدم عى قوم قد جرءوا على الشر فعلموه ، وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون ، واخزن لسانك ، ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر - ما ضبطه - متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه ، وإذا ضيّعه كان بمضيعة » .

فهى الوصايا الموجزة من القائد إلى قائد جنده ، وهى تحكى ضروباً من العمق البلاغى والخبرة الحربية التى تميز بها عمر ، أما فصاحته وبيانه وإبانته فلها حوار آخر فى فن الكتابة تتكشف فيه صور أخرى من براعته وبيانه .

ومن واقع الحصاد الخطابى للراشدَيْن الصديق والفاروق - رضى الله عنهما - يبين الحرص لدى كل منها على تتبع المثل الأعلى صلى الله عليه وسلم ، وتبرز معالم الفصاحة والإبانة لدى الخطيب كرجل سياسة وواعظ ومرشد وقائد يضع الأصول فى علاقة الحاكم بالمحكوم اختصاراً للمسافة القائمة بينهما ، من خلال تواضع الحاكم وقربه من الرعية ، وحاجته إلى المشوره مما يجعل اللغة الخطابية عند الفاروق أيضاً تسرى مسرى

خطابة الصديق من حيث خلوها من التكلف ومقومات الصنعة المعقدة ، وقربها من البديهة والتقريرية والمباشرة ، لأنها تستهدف الإفهام بالدرجة الأولى ، وما قصد فيها إلى صنعة بديعية متكلفة إلا ما جاء منها سريعاً أثناء إلقائه وحواره . وإذا بخطبة عمر القائد تحكى لنا جوانب من الأبعاد السياسية والدينية والتاريخية ، وكأنها تصور طبيعة حركة الفتوحات الإسلامية ، وترسم الواقع النفسى للمسلمين ، مما يصح أن نضعه فى موازاة شعر الفتوحات الإسلامية .

وتبدأ الخطابة تتمحور سياسياً ، وتمتد لغتها ، ويتعدد أقطابها ، وتستمر الصورة الخطابية عند الخليفة الثالث رضى الله عنه ، ومنها خطبته حين بايعه أهل الشورى على نحو ما رواه الطبرى حيث قال :

قال : « لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة ، فأتى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناسَ ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« إنكم فى دار قُلْعَة [1] وفى بقية أعمار ، فبادرُوا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أُتيتُمْ ، صُبّحْتمُ أو مُسّيتم ، ألا وإن الدنيا طُويَت على الغرور ، فلا تَغُرّنّكم الحياة الدنيا ، ولا يَغُرّنّكم بالله الغَرُوْرُ ، اعتبروا بمن مضى ثم جدُّوا ولا تغفلُوا ، فإنه لاَ يُغْفَلُ عنكم ، أين أبناءُ الدنيا ، وإخوانها الذين آثروها وعَمَرُوها ، ومُتّعُوا بها طويلاً ، ألم تَلْفظْهُمْ ؟ ارمُوا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلاً، والذى هو خير ، فقال عز وجل : (وَاضْرِبْ لهمُ مَثَلَ الحَيَاةِ الدُّنْياَ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأرضِ فَأَصْبَحَ هَشيماً تَذْرُوه الرّيَاحُ وكَانَ اللهُ عَلَى كُلّ شَيْئٍ مُقْتَدِراً ، المَالُ وَ البَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً) وأقبل الناس يبايعونه » [١٣] .

وقياساً على هذا الطرح السياسى بدأت الصراعات ، وتعددت أطراف التوتر ، وكثرت خطب على رضى الله عنه ، فإن اكتفينا منها بشاهد بقيت غيره شواهد أخرى

---

(١) أى انقلاع ، ومنزلنا منزل قلعة « بتسكين اللام وضمها وفتحها » أى ليس بمستوطن ، أو لا نملكه، أو لا ندرى متى نتحول عنه .

كثيرة تحكى فصاحته وبيانه ، فإذا هو يؤصل لنظرية الحكم الإسلامى كما رآها فى عصره، ويحكى من طبائع الأحداث ما استوقفه حول مشكلات الخلافة ، وكأنما مهد بخطابته لما سيصيبها من تطور بعد ذلك عبر عصر بنى أمية ، ولعل الرسائل المتبادلة بينه وبين معاوية تزيد الصورة عمقاً ووضوحاً منذ خطب فقال :

« الحمد لله على كلّ أمر وحال ، وفى الغدوّ والآصال ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ابتعثه رحمة للعباد ، وحياة للبلاد ، حينَ امتلأت الأرض فتنة، واضطرب جيلها ، وعُبِد الشيطان فى أكنافها ، واشتمل عدوّ الله إبليس على عقائد أهلها ، فكان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الذى أطفأ الله به نيرانها، وأخمد به شَرارَها ، ونزع به أوتادها ، وأقام به ميلها ، إمام الهدى ، والنبى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد صدع بما أمر به ، وبلّغ رسالات ربه ، فأصلح الله به ذات البين ، وآمن به السبل ، وحقن به الدماء ، وألف به بين ذوى الضغائن الواغرة فى الصدور ، حتى أتاه اليقين ، ثم قبضه الله إليه حميداً .

ثم استخلف الناس أبا بكر فلم يأل جهده ، ثم استخلف أبوبكر عمر فلم يأل جهده ، ثم استخلف عُثمان ، فنال منكم ونلتم منه ، حتى إذا كان منْ أمره ما كان ، أتيتمونى لتبايعونى فقلتُ لا حاجة لى فى ذلك ودخلتُ منزلى فاستخرجتمونى ، فقبضت يدى فبسطتموها ، وتداكَكْتم علىّ حتى ظننت أنكم قاتلىّ ، وأن بعضكم قاتلُ بعض ، فبايعْتمونى وأنا غير مسرور بذلك ولا جَذِل ، وقد علم الله سبحانه أنى كنت كارهاً للحكومة بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم وآله ، ولقد سمعته صلى اللهُ عليه وآله يقول: « مَا مِنْ وَالٍ يَلِى شيئاً مِنْ أمْرِ أُمّتى إلاّ أُتىَ به يوْم القِيامةِ مغْلولةً يَداهُ إلى عُنقِه عَلَى رُءُوسِ الخَلائق ، ثمّ يُنشر كِتابهُ ، فإنْ كَانَ عَادِلاً نجَا ، وإنْ كانَ جَائراً هَوَى » حتى اجتمع عَلَىَّ ملؤكم ، وبايعنى طلحة والزبير وأنا أعرف الغدر فى أوجههما ، والنَّكْثَ فى أعيُنهمَا ، ثم اسأذنانى فى العمرة فأعْلمتهما أنْ ليس العمرةَ يريدان ، فسارا إلى مكّة واستخفا عائشة وخدَعاها ، وشخص معها أبْناء الطُّلقاء ، فقدموا البصرة فقتلوا بها المسلمين وفعلُوا المنكر، وياعجباً لاستقامتهما لأبى بكْرٍ وعمر وبغيهما علىّ وهما يعلمان أنى لست دون أحدهما ، ولو شِئت أن أقول لقتُ ، ولقد كانَ معاوية كتب إليهما من

الشّام كتاباً يخدعهما فيه ، فكتماهُ عنىّ ، وخرجا يوهمَان الطَّغام أنهما يطلبان بدم عثمان ، واللهِ ما أنكر علىّ منْكرا ، ولا جعلا بينْى وبينهم نصَفاً ، وإن دم عُثمان لمعصوب بهما ومطلوب منهما ، يَا خيبةَ الدَّاعى إلامَ دعا ؟ وبماذا أجيبَ ؟ واللهِ إنهما لعلَى ضلالة صَمَّاء، وجهَالةٍ عميْاء ، وإنّ الشيطان قد ذمر لها حزبَه ، واستجلب منهما خيله ورَجِله ، ليعيد الجور إلى أوْطانه ، ويردّ الباطل إلى نصابه .

ثم رفع يديه فقال : اللَّهم إنّ طلحة والزبير قطعانى وظلمانى وألبّا علىّ ، فاحللْ ما عقدا ، وانكث ما أبرما ، ولا تغفر لهما أبداً ، وأرِهما المساءة فيما عملا وأمّلا »(١٤).

فمن الواضح أنه عمد إلى المنهج التقليدى فى الافتتاح بالتحميد والتوحيد ليليه بما كان من موقع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من هداية العباد حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده ، ثم راح يحكى قصة الخلافة موزعة بين الصديق ثم الفاروق رضى الله عنهما ، حتى إذا انتقل إلى خلافة عثمان سجل تحفظه حول الفتنة الكبرى حتى انتهى إليه أمرها ، وعندئذ نجده يعمد إلى تكثيف واضح للمعانى الدينية عبر أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن حجم التبعة وأخطار حملها ، ثم ينصرف إلى تسجيل الأحداث الجسيمة التى دارت حول خلافته من موقف طلحة والزبير ومعاوية ، والخطبة واضحة وضوح خطيبها على مستوى متميز من الانتقاء اللفظى والعمد إلى التقريرية والمباشرة قصداً إلى الإفهام والإقناع الذى رمى إليه الخطيب من واقع جدله وحواره .

فإن أردنا الوقوف على أهم القسمات والملامح المشتركة التى ميزت الفن الخطابى لدى خطباء هذا العصر وجدنا منطق البحث عن المثال ومحاولات الاقتداء به سمة بارزة يمكن استقراء جوانب منها فى :

أولاً : ذلك التشابه الواضح فى مستويات الأداء الفنى ، مما يطرح تشابها آخر فى لغة الخطاب من ناحية مع تقارب واضح فى المستويات المعرفية للخطباء باعتبار ما بينهم من وحدة العصر والثقافة ، ومواد الفكر ومعطيات المواقف ، والتجارب والظروف ، سواء منها ما كان حربياً ، أو غير حرب مما بدا واضحاً فى منطق الحاكم والقائد والزاهد على حد سواء من ناحية أخرى .

ثانياً : ينعكس نظير لهذا التشابه فى طبيعة المتلقى ولدى جماهير المتلقين ممن عاشوا نفس الظروف وعايشوا نفس الملابسات ، واحتاجوا - بشكل عملى - إلى مساقات المنطق الخطابى المتميز الذى استعمله خطباؤهم ، فكان التشابه والالتقاء حول الجمهور أصلاً آخر من أصول هذا الفن ، خاصة إذا ما وضعنا فى اعتبارنا - وهذا ضرورى أيضاً - أن للجمهور فى فن الكلمة دوراً لا يحسن إلاتأمله والاعتداد به .

ثالثاً : تلك القواسم المشتركة التى بدأت تفرض نفسها من خلال أداء أى من خطباء العصر على النحو الذى تعكسه الملامح الفنية المكررة لديهم على نحو ما يمكن إيجازه فى تقريرية الأداء ، ومباشرة اللغة وتجنب التعقيد ، وندرة التصوير ؛ وكذا ندرة الصنعة البديعية ، إلى جانب العفوية وتلقائية الحوار والإلحاح على سَوْق الحجة ، والبحث عن الدليل والبرهان، إلى جانب الحرص المتكرر على حشد المادة الدينية وتكثيفها بصوره واضحة ، وهو ما يستكمل من منطق الحرص على الجمهور والإشفاق عليه ؛ الأمر الذى يظهر صداه أيضاً فى ترديد الصيغ الخطابية موزعة بين أمر ونهى واستفهام ، ومحاولات متكررة للإقناع إلى جانب الإمتاع الفنى الذى يعيشه المتلقى .

ومن هنا بدت اللغة لديهم تحليلية واضحة يغلب عليها الإطناب والاستطراد ، تأكيداً لانشغال الخطيب بموضوعه ، ورغبة منه فى السيطرة على جمهوره على مدار خطبته ، فهى اللغة الشارحة الموضحة بما يقربها من ذاكرة الجمهور ، وينتهى بها إلى مستوى معقول من الإفهام والإقناع .

رابعاً : ذلك التشابه الواضح بين المساقات الخطابية التى تستهدف توصيل المعلومة مما يزداد وضوحاً عبر مناهج الاتصال ومستوياته بين المخاطب والمخاطِب ، وهو ما يتعلق بالتقاء منطقتى الفكر والشعور لدى الخطيب ولدى جمهوره على السواء .

خامساً : لا تخفى فى مساحات هذا الفن عبقرية أداء خطبائه وكأننا نقترب من نتيجة محددة قوامها أن مكانة الخطيب وفنه الإبداعى فى هذا العصر بدا موازياً لمكانة الشاعر التى أشادت بها القبيلة العربية منذ عصر الجاهلية ، ومع عبقرية الأداء تظل ندرة أعمال الخيال ، والصدور عن الملكة التصويرية التى تظل خاصة من خصائص الشعر أكثر منها فى فن القول الخطابى ، ربما من قبيل مراعاة مستوى الجمهور والتلقى ، وربما من منطلق الحرص على الأداء الوظيفى المرتبط بالإقناع أكثر من أى اعتبار آخر .

سادساً : ظهر واضحاً فى محاور الخطب محاولات متكررة حول طمس المعالم الجاهلية ، وإحياء المعالم الإسلامية سلوكاً وقولاً ، حتى بدت العنصر المهيمن بدءاً من مصادره الكبرى المرتبطة باقتباس الآيات القرآنية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة ، إلى جانب ما يطرح من معطيات الحس الإسلامى العام ، إلى جانب العنصر المهيمن المباشرالذى يعكسه الاقتداء الواضح برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى ما تلاها من الصيغ والأساليب الشعبية بما لها من الذيوع والعموم والانتشار وصلابة منهج الخطيب واستناده إلى الأصول كمصدر أساس من مصادر الخطابة الدينية ، وكأننا أمام قياسات طبيعية مشتركة يبدو فيها تواجد الخطيب مع تواجد الجمهور وتواجد النص فى آن واحد ، والجمهور هنا قارئ فعلى ظاهر ومضمر فى نفس الوقت .

سابعاً : أن مجالات الفن الخطابى قد تعددت ، وتنوعت صورها بدءاً من المنطلق الدينى إلى غيره من مناظرات سياسية بدأت بالتأصيل لمنهج الخليفة مع رعيته وانتقلت إلى دوره ناصحاً وموجهاً عبر وصاياه إلى قادته وجيوشه ، وانتهت إلى بدايات الخوض السياسى منذ حدوث الفتنة الكبرى ومقتل عثمان رضى الله عنه ، مما فتح باباً جديداً فى الصراعات الخطابية التى سادت فى خطوط متوازية مع الصراعات الحزبية التى شُغل أصحابها بقضية الحكم ، وكأنها فتحت الباب أ مام المزيد من العقول فى هذه المجالات عبر عصر بنى أمية .

هوامش الفصل الثانى

(١) السيرة النبوية (أبو الحسن الندوى) ص ٣٥٤.

(٢) سورة آل عمران - آية ١٤٤ .

(٣) وربما يحسن هنا أن نعرض صورة الموقف كما تحكيه المرويات التاريخية من خطبته رضى الله عنه يوم قبض الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتى قال فيها حين دخل على النبى عليهِ الصلاة والسلام وهو مُسَجًّى (١) بثوب ، فكشف عنهُ الثوب ، وقال :
« بأبى أنت وأمى ! طِبْتَ حَيًّا ؛ وطِبْتَ ميتاً ! وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوةِ، فَعَظُمْتَ عن الصفة ، وَجَلَلْتَ عن البكاء، وَخَصَصْتَ حتى صرت مَسْلاة (٢) ، وَعَممْتَ حتى صرنا فيك سَوَاءً (٣) ولولا أن موتك كان اختياراً منك (٤) ، لَجدْنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نَهيت عن البُكاء ، لأنفَدْنا عليك ماءَ الشُئُون (٥)، فأما مالاً نستطيع نفيَهُ عنا ، فكمَدٌ وإدنافٌ (٦) ، يَتَخَالفان وَلاَ يَبْرحان اللهم فأَبْلغْهُ عنا السلام ، اذكرنا يا محمد عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خَلَّفْتَ من السكينة لَم نُقِمْ لِمَآ خَلَّفْتَ مِنَ الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا ، واحفظه فينا »!.

(٤) تسجية الميت : تغطيته .

(٥) خص الشىء من باب قعد خصوصاً فهو خاص : خلاف عم ، مثل اختص (وكلا الفعلين يستعمل متعدياً ولازماً)، والمعنى إنك يا رسول الله قد صرت بموتك مسلاة للناس فإنك مع ما اختصصت به من مناقب النبوة قد نزل بك الموت ، فللعباد فيك أسوة حسنة.

(٦) أى عمت مصيبتك جميع المسلمين فصرنا نحن وقرابتك سواء فى الحزن عليك ، والتفجع لفقدك .

(٧) يشير إلى قوله عليه السلام : « لم يقبض نبى حتى يرى مقعده من الجنة ثم يخير » قالت عائشة: فسمعته وقد شخص بصره ؛ وهو يقول : « فى الرفيق الأعلى » فعلمت أنه خير ، فعلمت أنه لا يختارنا إذن ، وقلت هو الذى كان يحدثنا وهو صحيح .

(٨) جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين.

(٩) دنف المريض كفرح ، وأدنف ، ثقل ، والشمس : دنت للغروب واصفرت .

ثمر خرج إلى الناس وهم فى شديد غَمَراتهم ، وعظيم سكراتهم ، فخطب خطبة قال فيها :
« أشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، وأشهد أنَّ الكتاب كما نَزَل ، وأنَّ الدِّين كما شرع ، وأنَّ الحديث كما حَدَّث ، وأن القول كما قال ، وأنَّ الله هو الحق المبين.. فى كلام طويل ، ثم قال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حَىٌّ لا يموت ، وإنَّ الله قد تقدَّم إليكم فى أمره ، فلا تَدَعوه جَزَعاً ، وإنَّ الله قد

اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه إلى ثوابه ، وخلف فيكم كتابَهُ ، وسنة نبيه ، فمن أُخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر .

(يَأَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ ، وَلَا يَشْغَلَنَّكُمُ الشيطان بموت نبيكم، ولا يَفْتِنَنَّكُمْ عن دينكم ، فعاجلوه بالذى تُعْجِزُونَهُ، ولا تستنظروه فَيَلْحَقَ بكم ».

(زهر الآداب ١:٣٥)

(١٠) العقد الفريد ٢/١٣٠ ، وإعجاز القرآن ١١٥ ، عيون الأخبار ٢/٢٣٤ ، تهذيب الكامل ٦/١ ، تاريخ الطبرى ٢٠٣/٣ ، سيرة ابن هشام ٤٣٠ ، جمهرة خطب العرب ١/١٨٠ .

(١١) تاريخ الطبرى ٢١١/٣ ، شرح ابن أبى الحديد ١٦٧/٤ ، جمهرة خطب العرب ١٨١/١ .

(١٢) تاريخ الطبرى ٣١١/٣ ، شرح ابن أبى الحديد ١٦٧/٤ ، جمهرة خطب العرب ١٨٣/١ .

(١٣) تاريخ الطبرى ٢١٢/٣ ، الكامل لابن الأثير ١٦٢/٢ جمهرة خطب العرب ١٨٧/١ .

(١٤) سورة المائدة / آية ٨٢ واللفظ فى ٣٤ / فصلت .

(١٥) عبقرية عمر للأستاذ العقاد ضمن حواره مفتاح شخصية الفاروق رضى الله عنه .

(١٦) البيان والتبيين للجاحظ .

(١٧) تاريخ الطبرى ٢٧/٥ ، شرح ابن أبى الحديد ١٢٥/٣ .

(١٨) تاريخ الطبرى ٦٠/٤ ، الكامل لابن الأثير ٢ /٢١١

(١٩) تاريخ الطبرى ٤٣/٥ ، جمهرة خطب العرب ١ / ٢٧٠

(٢٠) شرح ابن أبى الحديد م ١٠٢/١ ، جمهرة العرب ٣٠٣/١ - ٣٠٤

❄ ❄ ❄

الفصل الثالث

تطور مستويات الأداء الفنى
فى الخطبة الأمــــوية
{ القــديم والجــديــد }
« الخطبة السياسية نموذجاً »

النمط السياسى

شهدت الدولة الإسلامية ضروباً من التحول والتطور ، وتغيرت معالمها وتبدلت قسمات حياتها كلما بعدنا عن عصر المبعث والراشدين ، ذلك أن المصالح السياسية العليا قد طغت على كل ما سواها ، وخرج من عباءة السياسة رجال وأحزاب وفرق خطباء وشعراء ، وتعددت النظريات ، وتباينت المواقف ، وتصارعت الجماعات ، وبدا طبيعياً لهذه القسمة أن تترك أصداءها فى طبائع الأنشطة الأدبية وصور الإبداع الشعرى والخطابى على السواء.

وكما سلمنا فى المهاد النظرى بتشابه خلفية الفكر لدى الشاعر والناثر نعود لنرى الأمر مؤكداً فى تشابه الاتجاهات الفنية والظواهر الشائعة فى العصر ، مما يوجزه لنا منطق التخصص الفنى البيئى الذى عرفته الحياة الأموية ، وهو ما اكتملت له مقوماته من منطلق ظاهرة الالتزام عبر مستوياتها المتنوعة بين سياسى واجتماعى وقبلى وأخلاقى ودينى .

ومن هنا كان نصيب الخطابة الأموية أن تتأثر بهذه الإيقاعات الجديدة ، وأن تنعكس من خلالها مناطق الالتزام وظواهر التخصص ، وهو التزام حزبى هنا يختلف عن دوائر الالتزام التى رأيناها فى مسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والراشدين - رضى الله عنهم - من بعده .

وكما رأينا فى مجمل خطابة الرعيل الأول كيف كان الخطيب يجمع فى خطبته بين دوائر متعددة سياسية وإنسانية واقتصادية واجتماعية دون توقف عند حد التخصص فى أى من هذه الاتجاهات ، نجد الأمر يختلف مع مطالع عصر بنى أمية الذى يشهد مزيداً من الازدهار فى حركة الخطابة ، ومزيدا من التطور فى قياساتها الفنية ، إلي جانب ماظهر من التخصص لدى أهلها سواء من الخلفاء ، أو ممن هم دونهم مرتبة ، فإذا بحقولها تتوزع بين الخطابة الدينية والخطابة الحفلية والخطابة السياسية [١] .

وحتى فى سياق المستوى الأول من هذه الأنماط نجد ضروباً من التحول قد بدأت تفرض نفسها طبقاً لطبيعة الخطيب ، وحدود موقعه بين جمهوره ، إذ كان منها نمط دينى يدور على ألسنة الخلفاء ، وخاصة منهم عمر بن عبد العزيز الذى عده المؤرخون خامس الراشدين [لا من قبيل الترتيب بالطبع] نظراً لما عُرف عنه من الانضباط السلوكى وإيثار الزهد والتقوى . كما أخذت اللهجة الخطابية مسارات أخرى عنه رجال الدين والزهاد ممن حاولوا القيام بدور حراس القيم وحماة الفضائل ، فقاموا على الدفاع الدائب عن العقيدة ، وحرصوا على إبعاد أيدى الزنادقة والمجان عنها ، وكانت سبلهم إلى ذلك الخطابة الدينية التى اقتحمت باب الوعظ والإرشاد ، فأكملت مسيرة السلف الصالح عبر هذا المضمار وأشباهه .

أما النمط الحفلى فكان أشد ارتباطاً بجوهر المناسبات والمواقف التى عاشتها الخلافة الأموية : سواء منها المناسبات الدينية أو الاجتماعية أو ما حدث من توقيع هدنة أو صلح أو معاهدة ، مما يتطلب صياغة بيانات خطابية ينهض بها خطباء الخلافة ، ويؤدون ما يسند إليهم من تبعات ووظائف محددة فى هذا المجال .

أما النموذج السياسى فلعله بدا من أكثر المستويات انتشاراً وذيوعاً ربما لاشتداد صور الصراع الحزبى بين الخلافة ومعارضيها فى عصر بنى أمية ، وربما بسبب من تعدد النظريات ، وتعارضات الفكر وتناقضات المواقف من نظرية الحكم ذاتها ؛ الأمر الذى انتهى بالخطبة السياسية إلى أن تشق طريقها من واقع مواقف جديدة تعد وليدة نظام الحكم الأموى ذاته من هذه الظواهر تحول أمر الخطابة السياسية من الخلفاء إلى رجال قوميين يقومون على خدمتهم والدعاية لهم ، ومحاولة ترسيخ أنظمة حكمهم ، وتثبيت أقدامهم فى الخلافة ، وكان من هؤلاء كبار الولاة والقادة، ممن أسهموا فى ضمان الأمن والاستقرار للحكم الأموى ، وعُرف بعضهم بعنفه وشراسته وقسوته مع الرعية ، خاصة مع الأحزاب المعارضة للخلافة الأموية وكأنما أعاد هؤلاء القادة إلى أذهاننا صورة الفارس القديم فى الجاهلية يوم أن كان يجمع بين الفروسية الحربية والفروسية الشعرية ، فتُهنأ به القبيلة ، ويحتفى به أبناؤها جميعاً .

وهنا بدا الخطيب فارساً فى ميدان الكلمة ، كما كان فارساً فى ميدان القتال فهو فى الحالتين يدافع عن قضية ، وينتصر لموقف أو يتحمس لنظرية ، وهو ما تكشّف بصورة واضحة متميزة فى خطابة الحجاج بن يوسف الثقفى منذ ولاه الخليفة أمر الكوفة ، وأوعز

إليه بتأديب الخارجين على الخلافة فيها ، فكان خطبته السياسية فى أهلها من نمط جديد، ولها إيقاع مختلف عن كل النماذج التى عرضنا لدراستها من قبل .

ذلك أن خطبة الحجاج تتجاوز المنطق التقريرى المباشر الذى وجدناه قاسماً مشتركاً فى خطابة عصر صدر الإسلام ، وإذا به يعمد إلى غريب الصور ، وغريب اللفظ أيضاً ، وكأنما قصد إلى إثارة الرعب والفزع فى نفوس جمهوره ، كما كان الحال عند كهان الجاهلية فى أسجاعهم عبر العصر الأول .

ولعل العلاقة بين الخطيب وجمهوره هنا تبدو جديدة ، وعلى درجة من الخصوصية والتغاير أيضاً ، فهى علاقة عدوانية ، تجاوزت كثيراً سماحة الخطابة الأولى ، وما كان من حرص الخطيب على جمهوره وعظاً وإرشاداً وترفقاً وتوجيهاً فى عصر المبعث والاشدين:

إذ يبدو الأمر هنا أمر تحدٍّ وتهذيب وتخويف ، وتأديب للعصاة والخارجين على الخليفة ، والوالى هنا هو نائب الخليفة ، وقائده الذى أسندت إليه مهمة التأديب تلك ، فكأنما قصد إلى تخويف جمهوره من خلال طبيعة حواره معه ، على ذلك النحو الذى اصطنعه الحجاج منذ صعد المنبر ، ثم كشف اللثام عن وجهه وأبان عن شخصيته حين خاطب الناس قائلاً بيته المشهور:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا .. متى أضع العمامة تعرفونى

ومع نص الخطبة يمكن أن نتأمل تتأمل موقفه وموقعه الخطابيَيْن من زحام خطابة عصره

حيث عبد الملك بن عُمير الليْثى فقال [1] :

بيننا نحن فى المسجد الجامع بالكوفة ، وأهلُ الكوفة يومئذ ذو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مَوَاليه ، إذ أتى آتٍ ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِم أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَماً بعمامة قد غطّى بها أكثرَ وجهه

(١) ويروى : أنه خرج يريد العراق والياً عليها فى اثنى عشر راكباً على النجائب ، حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : علىَّ بالناس ، فحسبوه وأصحابه خوارج فهمّوا به .

متقلّداً سيفاً ، متنكبًا [1] قوساً ، يؤُم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعِد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ،فقال الناس بعضهم لبعض : قبَّحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عُمَيْر بن ضابِئ البُرْجُمىّ : ألاَ أحْصِبُه لكم ؟ فقالوا : أمْهِلْ حتى ننظر [2] ، فلما رأى عيونَ الناس إليه ، حَسَر اللِّثام عن فيه ، ونهض، فقال:

« أنَا ابنُ جَلاَ وَطَلاَّع الثنايا متى أضعِ العِمَامَةَ تعرفونى [3]

ثم قال : يأهل الكوفة ، أمَا والله إنى لأحمِلُ الشرَّ بحمله ، وأحذوه بنَعْله ، وأَجزيْه بمثله ، وإنى لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورؤساً قد أيْنَعَتْ وحان قِطافُها ، وأنى لصَاحبُها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحَى تَتَرقرقُ ، ثم قال :

هذا أوان الشَّدّ فاشتَدّى زِيَمْ ... قد لفَّها الليلُ بِسوّاق حُطَمْ
ليس براعِى إبلٍ ولا غَنَمْ ... ولا بجزَّار على ظَهْر وَضَمْ [4]

---

(١) تنكب قوسه : القاها على منكبه .

(٢) قال ابن نباته « فلما سمعوا هذه الخطبة - وكان بعضهم قد أخذ حصى أراد أن يحصبه به - تساقط من أيديهم حزناً ورعباً ».

(٣) البيت لسحيم بن وثيل الرياحى ، قاله الحجاج متمثلاً ، وقوله « أنا ابن جلا » أى الواضح الأمر المنكشفه ؛ وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يجلو الظلمة . وهو مثل يضرب للمشهور المتعالم ، أى أنا الظاهر الذى لا يخفى وكل أحد يعرفنى ، ولم ينون جلا لأنه أراد الفعل
وتقديره أنا ابن الذى يقال له جلا الأمور وكشفها ، وقال بعضهم : ابن جلا - وابن أجلى - رجل- بعينه ، قال فى اللسان : « وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع فى الغارات من ثينة الجبل على أهلها » والثنايا جمع ثينة : وهى الطريق فى الجبل ، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا فى ارتفاعها وصعوبتها ، والعمامة : المغفر.
والبيضة : قال ثعلب : العمامة تلبس فى الحرب وتوضع فى السلم .

(٤) الشعر لرويشد بن رميض العنبرى والشد : العدو ، وزيم : اسم فرس أو ناقة ، وقيل اسم للحرب ، والحطم ، والحطمة : الراعى الظلوم الماشية يهشم بعضها ببعض ، فلا يبقى من السير شيئاً ، وقد ضرب المثل برعاة الغنم فى الحمق فقيل : « أحمق من راعى ضأن ثمانين » قال الجاحظ فى البيان والتبيين ١٣٩:١ « فأما استحماق رعاة الغنم فى الجملة فكيف يكون ذلك صواباً ؟ وقد رعى الغنم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام » والوضم : كل ما قطع عليه اللحم .

ثم قال : قد لفهَّا الليل بعَصْلبىّ   أروَعَ خَرَّاج من الدَّوِىِّ

مُهَاجِرٍ ليس بأعْرَابى [١]

ثم قال : شمّرتْ عن ساقها فشُدُّوا   وَجَدَّتِ الحربُ بكم فجِدُّوا

والقوسُ فيها وَتَرٌ عُرُدُّ   مثل ذِراع البَكْر أو أشدُّ

لابُدّ مما ليس منهُ بُدُّ [٢]

إنى والله يأهلَ العراق ، ومَعدِنَ الشقاق والنفاق، ومساوى الأخلاق ، ما يُقَعْقَعُ لى بالشّنان [٣] ، ولا يُغْمَز جانبىّ كتَغْماز التين ، ولقد فُرِرتُ [٤] عن ذكاء ، وفُتّشْت عن تجربة ، وَجَريتُ إلى الغاية القُصْوَى ، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بَقَاءه - نَثَرَ كِنَانته [٥] ، بين يديه ، فعَجَم [٦] عِيدانها ، فوجدنى أمرَّها عُوداً ، وأصلبًا مَكسِراً فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم [٧] فى الفِتن ، واضطجعتم فى مَرَاقِدِ الضلال ، وسَنَنْتم

---

(١) العصلبى : الشديد القوى ، الأروع : الذكى ، أو من يعجبك بشجاعته ، الفلاة المتسعة التى تسمع لها دوياً بالليل « وإنما ذلك الدوى من أخفاف الإبل ، تنفسخ أصواتها خيماً ، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيف الجن » ، وهجر الرجل :خرج حن البدو إلى المدن ، والأعرابى بطبيعته غر ساذج ليس فى تجربته كأهل المدن .

(٢) حد به الأمر : اشتد . وعرد أى شديد، والبكر : الفتى من الإبل، ولا بد من كذا : أى لا محيد عنه .

(٣) القعقعة : تحريك الشىء اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشنان : جمع شن بالفتح، وهو القربة البالية ، وهم يحركونها إذا أردوا حث الإبل على السير لتفزع فتسرع : مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله .

(٤) فر الدابة : فتح حنكها وكشف أسنانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه .

(٥) الكنانة : جعبة السهام . وفى رواية : « كب كنانته » أى قلبها .

(٦) وفى رواية « وأصلها عمودا » .

(٧) أوضع إيضاعا : أسرع فى سيره كوضع .

سُنَنَ الغيّ ، أما والله لألحُوَنَّكُم[1] لحْوَ العصا ، وَلأقْرعنكم قَرْعَ المَرْوَة [2] ، وَلأعْصبَنكم عَصْبَ السَّلَمَة [3] ، وَلأضْرِبنكم ضربَ غَرَائب الإبل [4] فإنكم لكَأهْلِ قرية كانت آمِنَةً مُطْمَئنةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ ،فكَفَرت بأنْعُمِ الله ، فَأذاقَهَا اللهُ لباس الْجُوعِ وَالْخوْف بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، وإنى والله لا أعدُ إلا وَفَيْتُ ، ولا أهُمّ إلا أمضيتُ ، ولا أخْلُقُ إلا فَرَيْتُ [5] ، فإيايَ وهذه الشُفعاء، والزَّرافاتِ [6] والجماعات ، وقالا وقيلا[7] ، وما تقول ؟ وفيم أنتم وذاك ؟

أما والله لَتَسْتَقِيمُنَّ على طريق الحق ، أو لأدَعَنَّ لكل رجل منكم شُغْلاً فى جسده، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعْطِياتِكم [8] وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المُهَلّب ابن أبى صُفْرة [9] ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلاّ سَفَكْتُ دمه ، وَأنْهبت [10] ماله ، وهدمت منزله » [2] .

وبعد مطلع التعريف بشخصيته بدأ الخطيب حواره المفزع مع جمهوره فاختار من

---

(١) لحا العصا : قشر ، وفى رواية : « لحو العود » .

(٢) المرو : حجارة بيض براقة تورى النار .

(٣) السلمة : شجرة كثير الشوك : قال الجاحظ فى البيان والتبيين .

(٤) « وهى تضرب عند الهرب ، وعند الخلاص ، وعند الحوض أشد الشرب » وقال الحارث بن صخر : يضرب يزيل الهام عن سكناته كما ذيد عن ماء الحياض الغرائب .

(٥) أخلق : أقدر ، وفريت : قطعت .

(٦) الشفعاء جمع شفيع ، وكانوا يجتمعون إلى السطان فيشفعون فى أصحاب الجرائم ، فنهاهم عن ذلك ، الزرافات جمع زرفة بفتح الزاى وضمها : الجماعة من الناس .

(٧) القول فى الخير ، والقال ، والقيل ، والقالة فى الشر .

(٨) أعطيات جمع أعطية ، وهى جمع عطاء .

(٩) قائد الجيوش الذى حارب الخواريج الأزرقة ، وفل شوكتهم .

(١٠) جعلته نهبا يغار عليه .

الألفاظ أدقّها ، ومن الصور أعقدها ، ويتدرج منطقياً بما يحقق له المطلوب الجدلى من خلال خطبته ، وأولها تلك الصورة المخيفة التى عرض فيها لمشـــهد الرؤوس وقد أينعت « وحان قطافها » وعلى يديه هو بصفة خاصة ، وهو معروف بين القوم بقوته وعنفه وشراسته ، من هنا كان منطلق الخطبة يفيض بمشاهد الدماء التى صوّرها أيضاً « تترقرق بين العمائم واللحى » ، فبنى الصورة من واقع تركيبين ، وكلا التركيبين يثير الفزع فى نفس المتلقى ، صحيح أنه عمّم الصورة ، ولكنها دلت على جوهر قصده مع أهل التمرد ممن جاء إليهم لا ليخاطبهم بل ليؤدبهم ، ويردهم إلى رشدهم ، فكان الرد بالكلمة هنا رادعاً حق الردع ، فأنىً لهذه الرؤوس اليانعة أن تستمر فى تمردها وقد جاءها الحجاج ليأتى على دابرها .

ولنا أن نتصور طبيعة ذلك الأداء اللفظى - بصرف النظر عن التصوير - من خلال «إنى لأرى» - « وإنى لصاحبها »- و« إنى لأنظر » - و « إنى والله »... لنتوقف عن صيغ التوكيد القطعى ازدواجاً بين إنَّ ، ولام التوكيد المفتوحة ، مع صيغ القسم ، مع زيادة التأكيد بالحديث عن « الأنا » التى كشفت عن توهجها وتضخمها أمام « الآخر » على الرغم من تفرد ضمير « الأنا » أمام ضمير « المخاطب » من جمع الجمهور ، ولكن الحجاج قصد إلى هذا قصداً بلاغياً ، كما قصد إلى رسم الصور الدالة على الشراسة والشدة والقوة والقسوة ، فما كانت رؤوس أهل العراق أمامه إلا ثماراً حان له قطفها ، وما كانت الصورة لتكتمل إلا من خلال ذلك المشهد اللونى الذى عرضه لون الدماء ، والدماء على غزارتها وكثافتها وترقرقها بين العمائم واللحى .

ثم جاءت انتقالة الخطيب إلى كشف جوهر جمهوره من خلال نظراته إليه ، وفهمه لصفاته ووعيه بطبيعته ، ومن هنا تدرج منطقياً من تعريف الجمهور بنفسه أولاً ، ثم كشف إدراكه للمهمة التى أرسله الخليفة من أجل إنجازها ، والتى رمز إليها بالصورة التى رسمها ثانياً ، ثم تدرج إلى التصريح بما يعرفه من صفات جمهوره ، وكأنما برّر بذلك ماعرضه فى صدر خطابته ، فمع التوكيد بالقسم ، ومع التوجه بالنداء راح يخاطب أهل العراق جميعاً ، ليلصق بهم من الصفات ما يدنيهم ويجعلهم أهلاً لتلقى صور التعذيب التى سيعرض لها تفصيلاً بعد ذلك ، فهم أهل شقاق ، ونفاق ، ومساوئ أخلاق ، وكأنه

دمغهم بالحجج القاطعة التى تستدعى الخلاص منهم ، فهم على المستوى السياسى أهل فتن وتمرد وثورات ، شقوا عصا الطاعة على ولاة الأمر ، وشكلّوا من خلال الأحزاب التى انتموا إليها ما يزعج أمن الخلافة ، فهم عصاة خارجون على أولى الأمر بقياس السياسية، أما بقياس الأخلاق فهم أهل نفاق وسوء خلق ، وكأنما جمع الخطيب كل المبررات التى تدفعه دفعاً إلى ضرورة التقويم والإصلاح ، وحتى إلى العقاب فى أشد صوره وأقساها .

وحين يستوقف أهل العراق ، تراه على المستوى الخطابى يحاول جذب انتباه جمهوره ليسيطر على فكره ، وتركزت نحوه بؤرة الشعور كاملة ، ليعود إلى تصور شخصيته التى اعتد بها كثيراً ، فإذا ما يستوقفه منها أساساً وما يستهدفه من توصيله إلى جمهوره قسوتها وعنفها وصلابتها ، فهو لا يعرف من التردد ولا التخاذل شيئاً ، ولو كان نزراً يسيراً ، وهو لايخشى التهديد ، ولا يخاف الوعيد ، ولا يتأثر بمنطق خصومه . وإن كثروا - ثم يتوقف متأنياً عند موقعه الرسمى من الخلافة ، ويقدم لهذا الموقع بما تفرده به بين أقرانه من امتلاك ناصية الذكاء والخبرة والتجربة ، وهل يُطلب من القائد أن يكون أكثر من ذلك ؟ ذكاء تدعمه تجاربه وخبراته ، فإذا هو يجمع بين فتوة الشباب وقوته وحماسه ، إلى جانب كهولة التجارب ، وحكمة الشيوخ وحماس المحاربين الأقوياء، وهو ما يقدم به لاختيار الخليفة له لتولى هذا المنصب الخطير ، والقيام بمهامه الجسام التى عُهِد إليه بها ، ثم يتوقف طويلاً عند تصوير أبعاد هذا الموقف ، بما يكفى للكشف عن قمة اعتداده بنفسه وجبروته الداخلى ، فإذا بالأنا تتضخم مرات كثيرة ، منذ تصويره لأمير المؤمنين ، وقد أتى بجعبة سهامة ؛ فأخرج كل ما فيها لينتقى أقواها فكان الحجاج- بهذا القياس - هو أرجح القيادات لتمتعه بالصلابة والقوة ، مما جعل الخليفة يفضله على كل من سواه من قادته ، وهو يذكرنا بمنطق المتنبى مع سيف الدولة فى القرن الرابع حين أنشده بيته المشهور الدال على نظير لهذا التضخم [٣] :

ولم تأت الجميل إلىَّ سهوا ... ولم أظفر به منك استراقا .

فأبلغ حاسـدى عليك أنى ... كبا برق يحاول بى لحاقا.

فمن خلال شبيه نفس المنظور كانت علاقة الحجاج بالخليفة الذى لم يقع عليه اختياره مجاملة ، بقدر ما جاء عن مراجعة وتأمل وتفرس بين كبار القادة ، فهو الأفضل لهذه المكانة وحده مما يكشف عن أمرين :

أولهما : اعتداد القائد بنفسه بهذه الصورة المتوهجة ، حتى ليكاد يمن على الخلافة الأموية ذاتها بشخصيته التى راح يتيه بها عبر هذه الخطبة .

وثانيهما : تأكيد ما بثه من الرعب فى قلوب جمهوره الذى يظل يتلقى من مثل هذا القائد الضربة إثر الأخرى بدءاً من قسوة لسانه كخطيب يحكى كيف سيكون الوجه الأخر حين تشتد الأزمة أو يدور قتال من جانبه .

وهنا نتوقف ثانية عند منطلقه اللفظى من خلال الضمائر التى قصد بها ذاته ، سواء منها ، ما بُنى للمجهول « فُررت .. فتّشتُ » ، أو ما جاء صريحاً مباشراً فى مواقع المفعولية الدالة على تفرد الاختيار وتمايزه : فوجدنى ، فوجهنى .. مع هذا التدرج المنطقى المنضبط . ومن خلال تنوع هذه الأفعال راح يبنى موقع الآخر من الأول ، وكأنه يقصد إلى تعليل الموقف من خلال ما وجده فيه الخليفة أولاً ثم ما كان من أمر حكمه له بالقيادة ثانياً ثم ما كان أيضاً من توجيهه إياه إلى أهل العراق بصفة خاصة من جانب ثالث.

وهنا يستطرد الحجاج - عوداً على بدء إلى توصيف مفصل لموقف أهل العراق بعدما أجمله فى صدر الخطبة ليراهم على المستوى السياسى وقد انخرطوا فى سلك الضلال ، واستمرأوا التورط فى الفتن ، وكأنما استساغوا مراوغة الخلافة وطالما حاولوا مقاومة الخليفة ، وطال عليهم الأمد بين التوجيه والإنذار، وتكررت منه محاولات التقويم والإصلاح ، ولكن الأمر لم يصلح ، ولم تتغير أحوالهم ، مما استدعى إرسال الحجاج إليهم فى نهاية المطاف .

وهنا - على المستوى الخطابى - يتوقف الحجاج عن التعليل والتبرير والإطالة فى تفسير أبعاد الموقف ، وكأنما جاء بالحجة الدامغة التى يدين بها جمهوره ، ممّن ترك لهم الحبل الغارب من قبله ، وكأنما قصد إلى تبرئة الخليفة من البطش بهم إلا بعد حوار وإنذار ونصح وإرشاد مما يقيم عليهم الحجة ، ويدفعه إلى الحكم عليهم من واقع تلك القسوة فليس من حقهم - بالقياس السياسى - أن يتمادوا فى تدبير الفتن ، وأن تجذبهم مراقد الضلال ليركنوا إليها ، والأخطر من هذا - منطقياً - أنهم يسنون أمام غيرهم سنن الغى والتمرد ، مما يزيد من حجم الخطر ، ويدعو إلى إيقافة قبل اتساع مساحته .

ومن هنا استطرد الحجاج ثانية ليعود إلى حواره حول نفسه ، فيحكى من شخصه ما سبق أن حكى منه جوانب شتى ، ولكن الحكاية هذه المرة تقوم على التهديد الصريح ، وتنطلق منه صيغ الوعيد المروّعة ، وكأنما راح يبنى على ما قدمه من تصوير ما سيوقعه بهم من صور العقاب التى اختار منها مشهد العصا والإبل ، وهو مشهد سياسى يبعث فى نفس جمهور المتلقين من الخوف والقلق صوراً كثيرة ، مما قد يذكرنا بقياس المتنبى حين عرض لأمر العرب والعجم بين حكام ومحكومين حين قال :

وإنمـا النـاس بالملوك ومـــا ... تفلح عـرب ملوكـهـا عـجم

فـى كـل أرض وطئـتـهـا أمم ... ترعـى بعـبـد كـأنـهـا غـنم

وإن تجاوز المشهد لدى الحجاج حدود الراعى وغنمه ؛ ليتوقف عند أبعاد الصورة التى خصصها بالضرب - والعصا وغرائب الإبل على استخدام صيغ التوكيد المكررة من خلال « القسم » و «لام القسم » ثم من خلال «لام التوكيد » و «نون التوكيد الثقيلة» ، وكأنما استجمع كل طاقاته التوكيدية التى تضيف إلى ما عُرف من شخصيته بعداً آخر يستكشفه كخطيب بارع مشهود له بالصنعة الفنية والأناة ، وحسن انتقاء الألفاظ ، ورسم الصور بمثل هذه الأناة وتلك الدقة .

وكأنما قصد الحجاج إلى الاستطراد فى إقامة الحجة ثانية وثالثة على خصومه ، فيستعيد صيغ القسم المشروط ، وكأنه أعطاهم الفرصة التى لا يسهل عليهم تجاوزها أو إمكانية تعويضها إن فاتتهم ، فأعطاهم مجالاً للاستقامه والتراجع عن الضلال وسبل الغى التى استهوتهم ، وهو فى ذلك يعكس صورة أخرى مما تعارف عليه شعراء بنى أمية فى مخاطبتهم لأقطاب الأحزاب المعرضة على حد تصوير الأخطل فى قوله مادحا عبد الملك بن مروان وهاجياً كل خصومه فى حقل السياسة والأحزاب ، خاصة مصعب بن الزبير فى العراق :

وتستبين لأقوام ضلالتهم .. ويستقيم الذى فى خده صعر (٤)

حيث صنف ضروب الضلالة للأقوام التى قصد بها -بالطبع - الأحزاب ، بتصوير ماهم فيه من جرم وتمرد ، يسنده غرورهم وما أصابهم من صور التخبط والغطرسة والمكابرة.

وهو نفس المنطلق المرصود فى صورة الحجاج حين يتوعد ويهدد ، ويمنح الجمهور

فرصة الاختيار بين الاستقامة على طريق الحق ، والرجوع إلى مهادنة الخلافة ، وإلا جعل لكل رجل منهم جرحاً فى جسده ، مع دقة اختياره لكلمة رجل هنا بما تعسكه من بعد إنسانى يتجاوز ما يمكن أن يمتد من الأذى إلى غير الرجال من النساء أو الصغار أو الشيوخ .

وبهذه الأقيسة الفنية وأشباهها بدت خطبة الحجاج بمثابة خطوة بارزة متميزة فى عالم الخطابة الأموية ، فهى تعكس روح العصر ، وتحكى منه جوانب فنية أصبحت الخطابة فيه صنعة لها أقطابها الكبار ، الخطيب فيها ينطلق من واقع الصنعة التى يعكف عليها يتعلمها حتى يجيدها دون اكتفاء بعفوية الأداء ، ولا بتلقائية التخاطب الجماهيرى مع جمهوره ؛ فالأمر يتجاوز كل هذا بكثير .

ولعل أبرز معالم الصنعة هنا تنطلق من واقع العكوف المتعمد على رسم الصورة لدى الخطيب ودرجة التمكن من استقصاء جوانبها وعرض جزئياتها ، وكأنما قصد الخطيب إلى أن يكون أديباً مبدعاً يجمع الأطراف والمتناقضات ، ويشغله التشكيل الجمالى الذى يوظفه - بدقة منهجية واضحة - فى أداء مهمته ، فلا شك أن الحجاج - على المستوى النفسى قد حقق كثيراً فى تصوره من وراء هذه الخطبة .

ومع كثافة الصور تبرز لديه الدقة فى انتقاء الألفاظ ، مما ينم عن مرحلة إعداد سابقة ، وعن صنعة متعمدة يؤكدها ذلك التدرج المنطقى الذى بنى عليه الخطبة استطراداً بين حوار الأنا مع الآخر، ثم عودة إلى الأنا وعلوها على الآخر ، وهكذا مما يدخل الخطبة فى سياق جدلى محكم ، قوامه قوة الخطيب وضعف جمهوره ، ومن جانب آخر استقامة الخطيب وضلال جمهوره ، وهو ما يتأكد مراراً فى كل توجهاته الخطابية التى انتقى معجمها بدقة بالغة ، فجعل لنفسه منها الذكاء والتجربة والصلابة والقوة والقسوة فى الانتقام ، وجعل لجمهوره منها على الجانب الآخر الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق والاستغراق فى الفتن والضلال والغىّ ، ومن ثم جاء بالتوسط المنطقى لاستكمال صورة العلاقة بين قائد يتمتع بكل هذه الصفات ، وبين جمهور يعرضه بهذه القسمات ، ليتوقف عند حتمية قطف الرؤوس وإراقة الدماء ، وضرب الإبل والإيغال فى الجراح .

فكأنما بنى خطبته من واقع هذا الثالوث المنطقى « المبرمج » الذى لم يشأ أن يحيد عنه إلا حين استوقفه من الخليفة دقته فى اختياره له دون سواه من عظماء القادة على الإطلاق .

مع البتراء

وقدم زياد بن أبيه البَصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ» والياً لمعاوية بن أبى سفيان وضم إليه خُراسان وسِجِسْتان ، والفِسْق بالبصرة كثير فاشٍ ظاهر ، فخطب خطبةً بَتْراء لم يحمَدِ اللّه فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد للّه على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيدَ من نِعمَه وإكرامه . اللّهم كما زِدْتَنا نِعماً فألهِمْنا شكراً » أما بعد : فإن الجَهالة الجَهْلاءَ [١] والضَّلالة العَمْياء، والغَىَّ المُوفىَ بأهله على النّار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلمَاؤكم [٢] من الأمور العِظَام، ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنهَا الكبير ، كأنككم لم تَقْرءُوا كتَابَ اللّه ، ولم تَسْمعوا ما أعدَّ اللّهُ من الثواب الكريم لأهل طاعتهِ ، والعذاب الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السَّرْمَدِىِّ [٣] الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت[٤] عينيه الدنيا ، وَسَدَّتْ مسَامعَه الشهواتُ ، واختَار الفَانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحَدَث الذى لم تُسبقوا إليه ، مِنْ تَرْككم الضعيفَ يُقْهَر ويؤْخذ ماله ، هذه المواخيرَ [٥] المنصوبة ، والضعيفةَ المسلوبةَ فى النهَار المُبْصِر ، والعددُ غيرُ قليل ، ألم يكن منكم نُهَاةٌ، تمنع الغُوَاةَ [٦] عن دَلَج [٧] الليل ، وغارة النهار ؟ قرَّبتم القرَابة ، وباعدتم الدين !

---

(١) هذا الوصف توكيد للمبالغة ، ومثله : وتد واتد ، وهمج هامج ، وليلة ليلاء ، ويوم أيوم (أى شديد، أو آخر يوم فى الشهر)

(٢) عقلاؤكم .

(٣) الدائم .

(٤) طرف عينه : أصابها بشىء فدمعت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه على الآخر، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده .

(٥) جمع ماخور : وهو بيت الريبة معرب أو عربى من مخرت السفينة لتردُّد للناس إليه .

(٦) وغواة جمع غاو من الضلال عن الحق .

(٧) السير من أول الليل ، وقد أدلجوا ، فإن ساروا من آخره ، فادلجوا بالتشديد .

تعتذرون بغير العذر ، وَتُغْضُون عَلَى المختلِس ، كلُّ امرئٍ منكم يَذُب [1] عن سفيهه ، صَنِيعَ من لا يخاف عاقبةً ، ولا يرجو مَعَاداً ، ما أنتم بالحُلَمَاء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما تَرَوْنَ من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم [2] الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم . كُنُوساً فى مكانِس الرِّيَب ، [3] حرامٌ علىَّ الطعام والشراب، حتى أسَوِّيها بالأرض هَدْماً وإحراقاً .

إنى رأيت آخِرَ هذا الأمر لا يصلُح إلا بما صلُحَ به أوله ، لينٌ فى غير ضَعف ،وشدة فى غير عُنْف ، وإنى أقْسِم بالله لآخذنَّ الولىَّ [4] بالمَوْلى ، والمُقيمَ بالظاعن ، والمُقْبِلَ بالمُدْبِر ، والمطيعَ بالعاصى ، والصحيحَ منكم فى نفسه بالسَّقيم ، حتى يَلْقى الرجلُ منكم أخاه ، فيقول : « أنجُ سَعْدُ فقد هلك سُعَيْد [5] » أو تستقيم لى قَنَاتُكمُ ، إن كِذْبَة المِنبر بَلْقَاءُ [6] مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حَلَّتْ لكم معصيتى [7] ، فإذا سَمِعتموها

---

(١) يدفع .

(٢) جمع حرمة ، وهى مالا يحل انتهاكه . روى الشعبى قال « لما خطب زياد خطبته البتراء بالبصرة ونزل ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ،فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق ، فيقال لها : نادى ثلاثة أصوات ، فإن أجابك أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما نصنع !».

(٣) كنوس جمع كانس : أى مستتر كقعود وجلوس جمع قاعد وجالس ، وأصله من كنس الظبى كضرب: دخل فى كناسه (ككتاب) وهو مستتره من الشجر ، ويجمع كانس أيضاً على كنس (كركع) ومنه الجوارى الكنس (وهى الخنس) وهى الكواكب السيارة ، أو النجوم الخمس : زحل، والمشترى ، والمريخ ، والزهرة ، وعطارد ، لأنها تكنس فى المغيب كالظباء فى الكنس (ككتب)، أو هى كل النجوم لأنها تبدو ليلاً وتختفى نهاراً (وخنوسها أنها تغيب كما يخنس الشيطان إذا ذكر الله عز وجل) ومكانس الريب : مكامنها المستترة جمع مكنس كمجلس .

(٤) الولى : السيد ، و المولى هنا : العبد .

(٥) سعد وسعيد هما ابنا ضبة بن أدّ خرجا فى طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردها وقتل سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال : سعد أم سعيد ؟.

(٦) من البلق بالتحريك : وهو ارتفاع التحجيل فى الفرس إلى الفخذين (والتحجيل : بياض فى قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة لتميزها عما سواها ببلقها .

(٧) فى الطبرى « قال الشعبى : فوالله ما تعلقنا عليه بكذبة ، ولا واعدنا خيراً ولا شراً إلا أنفذه .

منى فاغْتمِزوها [١] فىّ ، وأعلموا أنّ عندى أمثالها ، من نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذَهَبَ منه [٢] فإيَّاى ودلَجَ الليل ، فإنى لا أوتَى بِمُدْلِجٍ إلاّ سَفَكْتُ دمه ، وقد أجَّلتكم فى ذلك بمقدار ما يأتى الخبرُ الكوفةَ ويرجع إليكم [٣] ، وإياى ودَعْوَى الجاهلية [٤] فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحْدَاثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبةً ، فمن غَرَّق قوماً غرَّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نَقَب بيتاً نَقَبْنَا عن قلبه ، ومن نَبَشَ قبراً دَفَنَّاهُ حَيًّا فيه ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكْفُفْ عنكم يَدِى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف [٥] ما عليه عامَّتكم إلا ضربتُ عُنقه ، وقد كانت بينى وبين أقوام إِحَنٌ [٦] ، فجعلت ذلك دَبْرَا أذنى [٧] وتحت قَدَمى ، فمن كان منكم مُحسِناً فَلْيَزْدَد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينْزِع عن إساءته ، إنى لو علمتُ أن

---

(١) عدوها من عيوبى واغتمزه طعن عليه .

(٢) فى الطبرى كان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم فى العقوبة ، وجرد السيف ، وأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس فى سلطانه خوفاً شديداً حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشىء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأخذه ، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلها ، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله ، وكان يقول : « لو ضاع حبل بينى وبين خراسان علمت من أخذه ».

(٣) فى الطبرى : « استعمل زياد على شرطته عبد الله بن حصن ، فأمهل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر العشاء حتى يكون آخر من يصلى ، ثم يصلى ، يأمر رجلاً يقرأ سورة البقرة ومثلها ، ويرتل القرآن ، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ الخريبة (كجنينة موضع بالبصرة يسمى البصيرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنساناً إلا قتله فأخذ ليلة أعرابياً ، فأتى به زياداً ، فقال : هل سمعت النداء ؟ قال : لا والله ، قدمت بحلوبة لى ، وغشينى الليل فاضطررتها إلى موضع ، فأقمت لأصبح ، ولا علم لى بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقاً ، ولكن فى قتلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه »

(٤) قولهم: يا لفلان ، والغرض مناصرة المصيبة .

(٥) أى تخالف ما اجتمع عليه عامة القوم .

(٦) جمع إحنة : وهى الحقد والضغينة .

(٧) أى خلف أذنى ، وقد اقتبسها من كلام معاوية .

أحدكم قد قتله السُلُّ من بُغضى لم أكشف له قِنَاعاً ، ولم أهْتِك له سِتراً ، حتى يُبْدِىَ لى صَفْحته [١]، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وَأعِينوا على أنفسكم ، فَرُبَّ مُبْتَئِس بقدومنا سَيُسَرُّ ، وَمَسرورٍ بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس : إنا أصبحنا لكم سَاسَةً ، وعنكم ذَادَةً ، نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، وَنَذُود عنكم بَفْىء الله الذى خوّلنا [٢] ، فلنا عليكم السمعُ والطاعةُ فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما وَلِينا ، فاستوجبوا عَدْلَناً وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قَصَّرت عنه ، فَلن أقَصِّر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بِلَيْل ، ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبَّانه [٣] ، ولا مُجَمّراً [٤] لكم بَعْثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساسَتُكم المُؤَدِّبون لكم ، وكَهْفكم الذى إليه تأوُون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تُشْرِبوا قلوبكم بغضَهم ، فيشتدّ لذلك غيظكم ، ويطولَ له حزنكم، ولا تُدْركوا له حاجتكم ، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شراً لكم ، أسأل الله أن يعين كُلاً على كلٍّ ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر ، فَأنْفِذوه على أذْلاله [٥] وايمُ الله لى فيكم لصَرْعَى كثيرة ، فليحذَر كل امرئ منكم أن يكون من صَرْعاَىَ ».

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال : « أشْهَدُ أيها الأمير لقد أُوتيتَ الحكمة وفَصْلَ الخطاب » ، فقال له « كذبت ذاك نبىّ الله داود صلوات الله عليه » فقام الأحنف بن قيس ، فقال « إنما الثناء بعد البَلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُثْنِىَ حتى نَبْتَلِى »

---

(١) أى يجاهرنى بالعداوة .

(٢) ملكنا . والفىء : ما كان شمساً فينسخه الظل ، والخراج ، أى ندفع عنكم بظل الله ونعمته التى وهبنا ، أو ندفع عنكم بما صار فى أيدينا من أموال الخراج .

(٣) وقته وموعده .

(٤) جمر الجند : حبسهم فى أرض العدو ولم يقفلهم .

(٥) أى وجوهه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق محجته ، وأمور الله جارية على أذلالها أى مجاريها .

فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مرْداس [1] بن أُدَيَة وهو يَهْمس ويقول : أنبأنا اللهُ بغير ما قلت .. قال الله تعالى « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ، أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إلا ما سعى » وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى والمقبل بالمدبر ، فسمعها زياد ، فقال : « إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً » [5] .

والخطبة من إبداع زياد بن أبيه ترصد من فصاحته وبيانه ما جعله بارزاً فى مجال السياسة والقيادة ، الأمر الذى يكشفه موقف معاوية منه منذ ولاه أمر المنطقة الشرقية من الدولة الأموية ، فكانت البصرة وسجستان وخراسان تزدحم بالإيقاعات العصبية ، وتعج بحركات التمرد والثورة إلى جانب ما شاع فيها من ضروب القلق ، وعدم الاستقرار لدى الرعية حيث أشاع المجان واللصوص وقطاع الطرق حالات من الفوضى أزعجت الرعية ؛ الأمر الذى بدا - بدوره - فى حاجة إلى قيادة حازمة تخلص هذه المناطق مما حلّ بأهلها ويعيد إلى المدن أمنها وهدوءها.

من هنا كان خطر دور زياد السياسى والقيادى سواء من واقع تلك الفوضى ، أو من خلال تلك المساحات المتعددة التى اتسعت جغرافياً وزاد اتساعها حين ضم إليه معاوية أمر الكوفة بعد موت واليها (المغيرة بن شعبة) ومعنى هذا أن أمر العراق قد آل إلى زياد ، ومعروف - بالطبع - موقع العراق فى تلك الفترة كمنطقة غليان وتمرد ، إذ كانت الكوفة مركزاً للتشيع ، وكانت البصرة مركزاً للخوارج ، وكانت سجستان وخراسان محوراً للصراعات العنصرية من قبل الفرس بخاصة ، ومن جانب القبليين الذين قطنوا هذه الأماكن سواء من أهل الشمال أو الجنوب بوجه عام .

من هذا المنطلق كانت شهادة معاوية لزياد بالحزم والشجاعة وكان نجاحه فى قيادته وسياسته ، مما طمأنه إلى ترك أمر العراق كله بين يده ، فارتدى ثوب القائد والوالى الذى أفاد من سياسة معاوية فى الأخذ باللين ثم الشدة ، ويبدو أن زياداً كان أشد ميلاً إلى منطق القسوة ، خاصة فى فترة الفتن ، ومناطق التمرد ، وهو ما تعكس جوانب منه قراءتنا التحليلة لخطبته هذه وقد عرفت بـ « البتراء » أو « الشوهار » وقد خلت من صيغ

---

(١) وهو من رؤساء الخوارج .

الحمد والتمجيد والتوحيد على الأرجح ، وكأنما عكست تمرد صاحبها على كل ما حوله على الرغم من فصاحته وإبانته ، بل ربما قصد إلى هذا قصداً فأخفى من الخطبة تقاليدها الإسلامية التى تظل دالة على حسن علاقة الخطيب بجمهوره ، فيقدم لخطابته بما يعكس رحمته به وحرصه عليه ، وهو ما افتقده زياد فى جوهر موقفه مع جمهور لايريد به رحمة، ولا أن يبعث فيه اطمئناناً ؛ بقدر ما أراده من بث الفزع وإثارة الرعب فى صدور الناس ، فهو بصدد موقف عنيف ربما جعله يتجاوز الحدود التقليديه فى معمار الخطبة الإسلامية الموروثة التى قطع علاقته بها .

وربما كانت هذه الظاهرة الغريبة استكمالاً لنظائرها عند الشعراء ، ممّن حاولوا الانفلات من نمطية النموذج التقليدى للقصيدة لديهم ، وكأنما دفعتهم الرغبة فى التجديد إلى محاولة تجاوز مثل هذه النمطية ، فظهرت عند فريق منهم - خاصة القرذوق - قصائد بلا مقدمات ، وبدت الظاهرة أيضاً غريبة فى الشعر الأموى خاصة أن العصر - فى معظم اتجاهاته - كان عصر إحيائياً ، يستوحى الموروث ويتوقف شعراؤه عنده مراجعة وإحياء وإضافة وتجديداً (٦) .

وربما كان هذا التوازى محض مصادفة ، ولكن المؤكد أن ثمة منطقة تمرد سيطرت على نفسية الخطيب هنا ، وربما كان الأساس فيها موقفه العدائى من جمهوره ، مما يكشفه هذا المدخل الغريب إلى عقولهم بقوله: أما بعد ، فإن الجهالة .. والضلالة ... فإذا بهذا المدخل يعكس مبررات عدوانية ، ويحكى حتمية عنفه وقسوته ، حين يرى القوم وقد تورطوا جميعاً فى صور من الضلال والجهالة ، وأغواهم الشيطان ، فساروا فى ركابه ، وكأن زياداً لم يشأ أن يستثنى منهم أحداً ، فقد شمل حواره الكبير والصغير ، وضم السفهاء والحلماء ، ورأى الكل وقد استمرأ الفساد فلم يقاوم ، فازدادت الفتن من واقع مشاركة الكبار فيها وزاد خطرها حين نشأ فيها الصغار ، فاختلت القيم ، ولم تجد لها من القوم حماة ولا حراساً يقومون عليها ، ومن ثم كان وصف الخطيب للأمور بأنها «عظام» وكأنماجمع قياسات عظمها - أى خطرها - من عموم انتشارها بين القوم ، مما يستدعى ضرورة إعمال القبضة الحديدية التى تعيد الأمور إلى مسارها الصحيح دون تداعيات إلى مزيد من التدهور والخطر ، من هنا كانت شمولية الأداء اللغوى مطروحة بهذه الدقة المتعمدة كما قصد إليها الخطيب ، فكان « الإيغال » اللفظى والتصويرى دالاً على ما يرمى إليه من وصف الجهالة « بالجهلاء »، والضلالة « بالعمى » والغى يجر

أهله إلى النار ، ثم كان ذلك التعميم الجامع بين السفهاء والحلماء ، وكأنما فقد القوم رقيباً يتدبر أمرهم ، فكانوا فى حاجة إلى قسوة زياد لتأديب الكبار قبل الصغار ، خلاصاً من منطقة الفوضى التى آل إليها أمر الولاية .

من هنا كان الخطيب يستشعر خطر دوره والياً ، وقائداً ، ورجل سياسة ، وقائد حرب ، يعرف سُبُل القمع متى تطلب الموقف ذلك ، ومن هنا كانت « البتراء » دالة على منطق تلك القسوة الذى أخذ به القائد نفسه ، ولعله أراد تخفيف موقفه كخطيب ، حين استعان بحسه الدينى فى تأنيب القوم ، حين عرض لهم مستنكراً بعدهم عن كتاب الله ، وكأنهم ما سمعوا بآياته ، وما تدبروا ما تضمنته سوره الكريمة من ثواب لأهل الطاعة ، وعذاب أليم لأهل المعصية ، فكانت قضية الثواب والعقاب ، جانباً من مقاييس العدل الإلهى منذ خلق الله الأرض إلى أن يرثها ومن عليها .

وهنا بدأ التداخل بين حس السياسى ورجل الدين دالاً - بطبيعته - على رغبة زياد فى إفزاع جمهوره ، وتبرير هذا الفزع من واقع ما ارتكبوه من أخطاء ، وهو ما جعله يلجأ إلى القياس الدينى الذى استوقفه بين منطق الطاعة والمعصية ، وكذا بين الثواب والعقاب ، وبين ما هو حلال بيّن وما هو حرام بيّن ، وكأنما قصد من طرف خفى إلى تبرير مقولاته ، فهو يبحث عن سند دينى يخفف من بتره للخطبة ، ويتخذه مثالاً يحتذيه ويسلك مسلكه ، وهو - بذلك - يحذر جمهوره ، وينبهه إلى ضوابط سياسته بين الطاعة والمعصية ، وهو ما يمتد إلى مساحة ما بين منطق الثواب والعقاب ..

فهل تأثر زياد هنا - عن قصد - بسورة التوبة ، حين وردت بلا بسملة ، فى مخاطبة الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ربما وقع هذا ، وربما لم يقع ، وربما كان الدافع لا شعورياً من منطلق موقف الخطيب الذى اشتد انفعاله حين رأى الجمهور - بلا استثناء - يخوض فى عالم من الفوضى والضلال .

ولنا أن نتوقف عند منهجه الخطابى ، خاصة فى منطقة التعميم والإطلاق ، إلى جانب الإيغال والتكرار حول الجهالة والضلال والغى ، ثم الاستعانة بمزيد من هذا التعميم فى تفصيل المواقف موزعة بين مستويات القوم صغاراً وكباراً ، حلماء وسفهاء ، ثم هذا التشبيه الغريب الذى يرى فيه القوم جميعاً وكأنهم ليسوا من ا لإسلام فى شىء ، ولم يعرفوا الأصول الكبرى للعقيدة بدءاً من كتاب الله ، ومع تجاهلهم للأصل تجاهلوا الفروع

أو جهلوها ، فلم يعرفوا حدوداً ، ولم يستوقفهم وعد إلهى ولا وعيد ، مما يبرر له ما سيعرضه من حواره معهم .

ويستمر الحوار فى نفس السياق حين يعرض تلك المفارقات التى تنتهى إلى إدانتهم فى انشغالهم بالدنيا والشهوات على الرغم من إدراكهم أن مآل الدنيا إلى فناء ، ولكنهم - ركنوا إليها وتناسوا ثواب الآخرة ودار البقاء ، فكانت إدانتهم من هذا المنظور من خلال مؤاخذتهم والسخرية من سلوكياتهم ، وهو ما لجأ إليه الخطيب تصويراً وتضخيماً منذ توقفه عند طبيعة الحدث الجسيم الذى أحدثوه فى الإسلام ، فكانوا غير مسبوقين إلى مثله وهو ما قصد إلى تفضيله بعد ذلك الإجمال والتعميم ، حيث توقف عند معالم الخلل فى صوره الاجتماعية والأخلاقية مما أدى إلى اضطراب حياة مجتمع البصرة ، وافتقاد صور التوازن الاجتماعى بين أهلها ، وغياب الضوابط الأخلاقية مما انعكس- بدوره - فيما أصاب الضعفاء من صور القهر والإذلال ، وما أصاب أموالهم من سرقات ونهب ، فلم يستطيعوا حماية أنفسهم ، ولا أموالهم من اللصوص وقطاع الطرق والفساق الذين غصت بهم المدينة ، وضاق بهم أهلها .

ثم يقف الخطيب عند لومه لأهل البصرة لا من خلال التغاضى عن المشهد السابق فحسب ، بل تمتد الظاهرة الأخلاقية إلى أبعاد أكثر انحداراً وأشد انحطاطاً ، وكأنما تغافل القوم عنها ممثلة فى انتشار بيوت الريبة التى نشرت الفساد وروجت له ، وظلت منصوبة أمام أعين القوم ليل نهار ، وكثرت اعتداءات الفساق على الحرمات ، وشاعت الفوضى على أيديهم ، وشاهد الخطيب هنا أن الأمر تجاوز حد الاستثناء حتى أصبح ظاهرة خطيرة ، بدليل ما أكده قائلاً : والعدد غير قليل ، وكأنه يكاد يقسم على عموم الظاهرة وشدة خطرها وإثبات قدرته على مواجهتها .

ولا شك أن الخطيب هنا استقى المادة اللغوية الدالة على جوهر الموقف ، فأجاد تصنيفها من خلال صيغ المجهول حين يتعلق الأمر بالضعيف حين يُقهر ويؤخذ ماله ، وهو ما يكتمل بذك التوالى لصيغ المفعول به ، وقد أتت وصفاً مرة للمواخير ، وأخرى للنساء من الضعاف ، مما يدل على استمرارية الصورة ويستوجب الخلاص منها .

وفى تدرجه المنطقى من استجلاب الشاهد على حديثه ينتقل إلى تقريع أهل البصرة، ويكثر من مؤاخذتهم على تخاذلهم وسلبياتهم أمام مظاهر الفساد ، حيث يستفهم

الخطيب مستنكراً لهم ، ومنكراً عليهم مثل هذا الصمت وكأنما عدموا أن يكون من بينهم رجل واحد ينهى الغواة عن سرى الليل وغارات النهار ! ، وكأنما قصد إلى الانتقال الأسلوبى من هذه الإنشائية الاستنكارية إلى الصيغ الخبرية التى تزيد من أثر اللوم والاستهجان ويشتد معها منطق التقريع والتوبيخ ؛ فإذا بالخطيب يفسر لجمهوره موقفه حيث يتهمهم بأنهم قد قربوا القرابة ، وباعدوا الدين ، وهو اتهام خطير يحصرهم فى واقع جاهلى قديم أسقطه الإسلام ، وأخرج العرب من دائرته منذ جاءت الرابطة الروحية لتزيح سلطان رابطة الدم والعصبية القبلية من النفوس .

ومعنى هذا أن الخطيب قد اتهم جمهوره صراحة بالتعدى على حدود الله ، منذ فضلوا صلات القربى ، وتناسوا المقومات الدينية الصحيحة فما أخذتهم فى الحق لومة ، ولا نهاهم عن الباطل حزم أو خلق قويم ، بقدر ما استمرأوا الصمت والسكوت ، بل راح فريق منهم يجدُّ فى انتحال الأعذار وتبرير الأحداث ، فكانت الأعذار - من هذا المنطلق- غير مقبولة ، وكان تجاوزهم عن المختلس ، وتغاضيهم عن مسلكه دافعاً إلى استمرار الجرائم وزيادة أعداد مرتكبيها .

وفى إطار هذا التنوع بين الصيغ الخبرية والإنشائية يستمر الخطيب فى حواره العنيف مع جمهوره ، وتحتد لهجته حين يحيلها إلى كل فرد من القوم ، ممن اتهمهم بالحمق والسفاهة ، بدليل مداراتهم على السفهاء ، ودفاعهم عن أخطائهم ، وكأنما شغلتهم الحياة الدنيا ، وسيطر عليهم إرضاء الناس ، فتجاهلوا العاقبة والحساب ، وتناسوا يوم البعث والإشهاد.

ومن هنا انتهى الخطيب إلى تقرير مطلق ضم القوم فيه إلى السفهاء والحمقى ، فقد انتزع منهم التعقل والحلم ، منذ جعلهم مجرد أتباع للسفهاء ، وهم أتباع سلبيون لا قيمة لهم ولا وزن فى توجهات السلوك ؛ الأمر الذى بدت آثاره واضحة فيما تركه العقلاء للسفهاء من نشر للفساد وانتهاك لحرم الإسلام .

من هذا المنطلق الخطابى كانت منطقية الخطيب أساساً بارزاً فى حواره مع جمهوره، وكأنماوضع بين أيديهم المهاد الذى سيبنى على أساس منه أحكامه ، وهو مهاد سلبى فى جملته ، وعبر تفاصيله ، مما يبرر جهوده اللازمة لتصحيح المسار وضبط حركة المجتمع والأخلاق ، وهو ما انتقل له زياد بعد ذلك حين شغله ضمير « الأنا » كما رأيناه شاغلاً

عند الحجاج ، وكأنما أراد زياد أن يضع بين أيدى جمهوره مفاتيح شخصيته التى رآها أساساً لإصلاح الأمر ، وتوجيه الموقف إلى وجهته الصحيحة ، جامعاً فى ذلك بين اللين والشدة ، ولكن أى لين هذا ؟ وأى شدة تلك ؟ إنه اللين الدال على قوته وتسامحه معاً فهو موقف إنسانى مركب لا يعرف ضغوطاً ولا تجاوزات ولا مجاملة، وهى الشدة الملتزمة بقضايا الجماعة فى غير ضعف على حد تصويره . وكأنما آلى الخطيب على نفسه تنفيذ تلك السياسة بكامل حذافيرها منذ توجه إلى القوم منها ومحذراً ، وموجهاً ، ومهدداً ، حيث يقسم بالله ، ويؤكد بأكثر من توكيد على منهجه مع القوم ، فهم جميعاً سواسية أمام سياسته ، ولو أن أحداً منه استتر على جريمة لاشتد فى تعامله معهم فأخذ الجميع بالقسوة والشدة لا فرق بين ضعيفهم وقويهم ، بل راح يثير فى أنفسهم الرعب حين يضرب لهم الأمثال من خلال ما تصوره من تنادى القوم ، وتناصحهم بمحاولة النجاة من سطوته وقسوته ، إن لم يستقيموا ويعودوا إلى طريق الحق ، على غرار ما عرضنا له تحليلاً فى خطابة الحجاج .

وعلى المستوى اللغوى : تبرز قدرة الخطيب هنا على استجماع المفردات الدالة على ما يرمى إليه من وراء حواره مما تحمله تلك المطابقات اللفظية الجامعة للأحرار والعبيد ، والمقيمين والرُّحَّل ، والمقبلين والمدبرين ، والمطيعين والعصاة ، وهو التطابق الذى يزيد من وقع الموقف على نفوس المخاطبين ، ويبث فى قلوبهم من صور الفزع والرعب ما أراده الخطيب لهم ، وهو ما توَّجه بتلك الكناية عن إمكانية شيوع الخوف بين الرعية حتى أن الواحد منهم إذا لقى أخاه بدا فزعاً خائفاً طالباً منه أو له النجاة من هول ما رأى من هلاك الآخر ، وإن ترك الخطيب أمامهم الفرصة لمراجعة النفس ، والانتهاء عن طرق الشر واتباع أمر الوالى ، وإعلان الطاعة المطلقة له ، وإلا أصابهم من ضروب الأذى وصور العقوبات ما استوقفه تفصيلاً بعد ذلك ، منذ بدأ يعدد ملامح الجرائم، ويضع للمجرمين جزاء إجرامهم ، فمن حاول أن يسرق الناس أو يروِّعهم ، فالوالى ضامن لهم أن يخلصهم من شره ، فإن كان من قطاع الطرق ودلج الليل سفك دماءهم ، وخلص الرعية من شرورهم وعدوانهم .

ثم يعود إلى التحذير المطلق من دعوى الجاهلية ، وكأنه يستوقف القوم عند المعانى الإسلامية ، لعلهم يأخذون بها ، فلا ينتكسون إلى حس العصبيات أو روابط الدم ، وهنا يرتدى الخطيب مسوح الرجل المسلم الذى يعرف حق رعيته وواجباتها ، ويبدو حريصاً على

سلامة مسلكها وإنقاذها من الدعاوى القديمة البالية ، وكأنه يقتدى بمقولة رسول البشرية عليه السلام منذ حذر الناس من أن يرتدوا إلى جاهليتهم كفاراً يضرب بعضهم أعناق بعض ، أو كأنه يقلد الفاروق - رضى الله عنه - حين آخذ دعاة الجاهلية على خطر دعاواهم على نحو ما عرضنا - آنفاً - من موقفه من الحُطيئه حبساً ثم عفوا مشروطاً .

وهنا تشتد حدة لهجة الخطيب ، لتبدو أكثر إثارة للفزع فى النفوس فهو يتوعد القوم ويهددهم ، ثم ينبههم إلى عدم التهاون مع دعاة الجاهلية أو الصمت أمام الرامين إلى الفوضى وإسقاط القوانين ، ليصل التهديد إلى ذروته حين يصور طبيعة عقوبة المرتد إلى الجاهلية والداعى إليها بقطع لسانه ، وهو ما استتبعه تناوله لصور العقوبات التى وضعها من منطلق إسلامى يجعل الجزاء من جنس العمل والنتائج من واقع المقدمات ، فيصور ما استحدثه القوم من صور الفتن والفوضى ، وما أشاعوه من الأحداث الجسام ، ليضع لهم فى موازاة كل حدث منها طبيعة العقوبة التى تتسق معه ، فمن غرّق قوماً كان جزاؤه نفس الغرق ، ومن أحرق قوماً فلابد من إحراقه ، ومن نقب بيتاً قُتل ونقب عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفن فيه حياً ، وهى صيغ تزدحم بصور التهديد والوعيد حتى يرتدع الجناة عماهم فيه من قصد إلى الفوضى ، وحتى يتوقف من تسول له نفسه لأن ينضم إليهم ، أو يعاونهم ، أو حتى يصمت على ما يقومون به من صور الأذى والقهر التى أصابت الرعية وهددت أمن حياتها .

صحيح أن منطق القسوة هنا بدا سائداً كلغة مشتركة بين ضروب العقاب وصور الجرائم التى امتلأت بها المدينة ، ولكنه بدا - أيضاً - قريباً من طرف ما من واقع النص القرآنى الكريم سواء فى آيات القصاص بالقتل ، أو ما يوازيها من عرض صور القصاص الأخرى التى جعلت السن بالسن والأذن بالأذن والعين بالعين والأنثى بالأنثى والجروح قصاص .... .

فإذا الخطيب يتخذ سنده السياسى فى خطبته من واقع آثار الفوضى التى حلت بالبلاد ، وأزعجت الرعية وأرهقت العباد حتى استغاث الناس من أهوالها ، ثم يتخذ سنده الدينى من المنطلق الأساس فى أحكام القصاص على تنوع مستوياته وصوره ، وكأنما قصد إلى تبرير قسوته وعنفه ، بدليل ذلك الشرط الأخير الذى وضعه للقوم ، حين طالبهم بأن يكفوا عنه أيديهم وألسنتهم ، ليأمنوا شره ، ويتجنبوا قسوته وشراسته ، وأن يتجنب سفاؤهم مواطن الريبة ، وإلا ضرب أعناقهم .

ثم يكشف الخطيب عن نزاهته وحيدته ، ويصور تجنبه للمواقف الشخصية فى إصدار أحكامه ، فهو يبرئ نفسه من الأهواء ، ويتجاهل ما كان بينه وبين فريق منهم . من عداوات شخصية ، ذلك أن دوره كقائد ووال يحتم عليه تجاهل تلك المواقف ، وأن ينسى ما كان من أحقاد البعض عليه مما قد يدفعه إلى التحامل عليهم ، وهو ما أعلن تبرؤه منه وتجاوزه له ، بما كنى عنه بوضعه تحت قدمه أو دبر أذنه ، وهو يعطى المسىء فرصه أخرى لينزع عن أساءته ، داعياً القوم إلى الانصياع والطاعة ، وعدم المجاهرة بالمعصية أو الركون إلى أى من صور الفتنة ضده ، مما انعكس فى جانب من وعوده لهم بأن المسىء لا يحاسب إلا بقدر ما كشف عن إساءته ، وهو يردد ما تعلمه من مسلك عمر- رضى الله عنه - منذ قال لنا الظاهر والله وأعلم بالسرائر .

ومن الغريب أن يطرح زياد سياسته بتلك الأنماط من المصانعة التى يكشفها موقفه من خصومه بعد تصوير ضروب العقاب وصوره ، حيث يتوقف طويلاً أمام إظهار الإساءة والإصرار عليها ، ليجعلها موجبة للعقاب ، وإلا كان طيب التعامل مع من سالمه اقتداء بالسلوك الإسلامى المنضبط من واقع الدلالات القرآنية حول الصفح والعفو عند المقدرة ، والمجادلة بالحسنى ، والدفع بالتى هى أحسن ، حتى ليتحول المسىء إلى محسن ، والعدو إلى قريب ، وهو ما يتوجّه الخطيب بما أمر به الرعية من استئناف أمور حياتها ، والإبقاء على ما استبقى فى نفوس القوم حيث وزعهم زياد بين فريقين : منهم من سعد بمجيئه وتصور أنه سيمد له فى حبل الطغيان والفوضى ، ونسى هؤلاء أن نهايتهم ستكون على أيدى زياده هنا ، وهو ما يقع عكسه حين يطمئن القوم إلى أن هناك من ضاق بمجيئه والياً ، ولكنه سيجد من أمر ولايته ما يعيد إليه الحق ، ويزيح عنه صور الظلم والباطل . هذا عن الخطبة فى سياقاتها السياسية والأخلاقية والاجتماعية والدينية كما عرضها زياد بين جمهوره ، ويبقى لنا أن نحللها فينا من عدة زوايا وعبر عدة مستويات تبدأ من :

أولاً : مستوى الانتقاء اللفظى الذى أخذ به الخطيب نفسه ، فإذا به يصدر عن معجم رجل سياسة لا يعرف الرحمة والهوادة إلا قليلاً ، وهو ما يستوجب عطفه على الضعفاء وقسوته مع الأقوياء ، فإذا بفقرات الخطبة تبنى من واقع هذه الألفاظ الجامحة فى دلالتها بين منطق الجهالة والضلالة ، والغى والعذاب ، والقهر والغارات ، والاختلاس وانتهاك حرم الإسلام ، وعموم القسوة ، وسفك الدماء ، وقطع الألسنة والإغراق والإحراق ، والدفن ، وضرب الأعناق ، والأحقاد والإساءة ، مما يصدر عن طبيعة

الموقف العصيب الذى تولى القائد فى إطاره ليعيد إلى المدينة حياتها الآمنة المفقودة ، وليقضى على ما شهدته من صور الفوضى ومظاهر الفساد.

ثانياً : أن الخطيب قد أفسح - على المستوى اللفظى أيضاً - للجانب الآخر أن يظهر من واقع بعض العبارات التى استعان بها فى تصوير جوانب سياسته وكشف أبعادها المتناقضة بدءاً من توقفه عند البعد الدينى الذى ينبه فيه إلى صلته بكتاب الله عز وجل ، وإلى وعده ووعيده لأهل طاعته وأهل معصيته ، وكأنه - بذلك - ينبه إلى أن مصدر العقوبات عنه سيكون مصدراً دينياً قبل أى اعتبار آخر ، وهو ما عاد إليه استطراداً حين أسقط من حسابه كل العداوات الشخصية والمواقف الذاتية كقائد ووال .

وتأتى هذه الألفاظ بمثابة انعكاس لنية الخطيب لترسُم منهجه وخطته فى أمر الولاية ، مما دفعه دفعاً إلى طمأنة الضعاف من القوم (من نُقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه .. وهو ما يوازيه منطق الشدة والقسوة تأديباً للبغاة ، « فإنى لا أوُتَى بمدلج إلا سفكت دمه .. قطعت لسانه ... إلخ .

وهو ما يتردد منه جانب أيضاً حين يفسح المجال للمسىء لكى يرجع عن إساءته صراحة ، وإلا ناله من عقابه مالا يأمن نتائجه .

ثالثاً : أن الخطيب قد وزان بين شخصيته وبين جمهوره ، وبين المنطقة التى أسند إليه أمرها ، وبين الظروف التاريخية التى تولى فيها ، فكانت الألفاظ دالة - بطبيعتها - على تداخل هذه الأرصدة وتفاعلها بدقة متناهية ، أبرزت دور الخطيب ، وكشفت مواقف البغاة ، وفسَّرت صمت الرعية ، وعرضت بما أصابها من صور الفزع والخوف ، مما احتوته الألفاظ الدالة عل كل موقف منها على حدة .

رابعاً : أن الخطيب قد استعان بالألوان البديعية ، وترددت لديه صيغة اللفظ ، صحيح أنها جاءت بصورة عفوية فى معظم الأحيان ، ولكنها تظل دالة على حرصه على انتقاء أدواته بدقة ، سواء منها ما جاء تقريراً مباشراً ، أو ما جنح منها إلى التصوير أحياناً قليلة ، على نحو ما عرضه فى صورة من طرفت عينيه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، وما صوره من الضغائن تحت قدمه ، وخلف أذنه ، حيث تظل مناطق التصوير محدودة بقياس اللغة التقريرية المباشرة التى عُدت قاسماً مشتركاً بين خطباء السياسة فى معظم مواقفهم وحوارتهم مع الجمهور .

خامساً : أن الخطيب قد جمع من صور الأداء الإنشائى والخبرى ما أسهم فى توصيل مطلبه إلى جمهوره ، سواء فى ذلك ما استعان به من صيغ الأمر : فاستأنفوا ، وارعوا ، فكفوا ... فلينزع أو صيغ التحذير : وإياى ودلج الليل .. وأياى ودعوى الجاهلية ... وصيغ الشرط : فمن غرّق .. ومن أحرق ... ولا تظهر عليكم ريبة .. إلى جانب تصانيف الصيغ بين النفى والإثبات بما يتسق مع توزيع النموذج الخطابى بين مستويى الرحمة والقسوة على السواء ، ومعها صيغ الاستفهام الاستنكارية : ألم يكن منكم .. وصيغ القسم وإنى أقسم بالله لأخذنَّ ... وصيغ الإجمال والتفصيل : إنى رأيت آخر هذا الأمر ..... وصيغ المطابقة من البداية وحتى نهاية الحوار : الصغير والكبير / الوعد والوعيد .. فرب مسوءٍ .. ورب مسرور .... إلخ .

وكأن الخطيب قد جمع أمامه من صور فصاحة الخطباء وبلاغتهم ما ازدحم به وعاء هذه الخطبة فاحتواه لتؤدى دورها الذى تجاوزت به حد الإقناع إلى حد التهديد والإنذار .

سادساً : أن الخطبة قد صدرت من واقع حس منطقى واعٍ استند إليه الخطيب فى حواره مع جمهوره ، فما كان ليخاطبهم عن العقاب إلا بعد أن صور لهم مواقع الفساد وصوره ، وما كانت لغة الشرط لديه إلا انطلاقاً من سيطرة المنطق الذى ازدحمت به الصيغ حين ربط جوهر العمل بطبيعة الجزاء من جنسه ، فكانت النتائج مرهونة بطبائع المقدمات وهو ما يظل ضامناً لخطبته دورها الذى أراده لها من خلال وجدان جمهوره وعقله على السواء ، وهو القياس الخطابى الضامن لسلامة الصلة بين الخطيب وجمهوره على مدار خطبته حتى نهايتها .

من الواضح - إذن - أن الخطبة ظلت دالة على فصاحة الخطيب كاشفة عن نبوغة بين جمهوره ، معبرة عن منهج سياسته التى أخذ بها أهل البصرة ، محددة أبعاد النظرية السياسية التى سارت عليها الخلافة الأموية وقصدت إلى التأصيل لها ، بين الرعية ، وخاصة بين قيادات الأحزاب المعارضة لها .

ولعل الفقرة الخاصة بالتنظير السياسى للحكم من خلال ما عرضه زياد فى مخاطبة الناس تحتاج إلى تأمل خاص إذ يجعل الأمويين لهم - أى الناس - ساسة وعنهم ذادة . وهم يسوسونهم بسلطان الله الذى أعطاهم ، وهو المنطق الذى بدأ يظهر فى الأفق الإسلامى لأول مرة ، فقد انتهى عهد الراشدين رضى الله عنهم ، وكأنما سقط معه تاريخ.

الشورى وحق الرعية فى اختيار الخليفة لتأتى صيغة وافدة من الشرق ، ربما من واقع الأنظمة الكسروية البائدة تروّج لأن يكون الخليفة هو سلطان الله على الأرض وتتيح له أن ينطلق فى حكمه من منظور « التفويض الإلهى » الذى خُصَّ به دون سواه ، أو يتفرد باعتباره خليفة الله على الأرض وهو المنطق الذى تقرب به شعراء الخلافة الكبار إلى الخلفاء ، واستساغه الخلفاء أنفسهم ، وشجعوا على الاستمرار فيه طالما أن المصلحة السياسية العليا كانت المحرك الأساسى لهم . وهنا يلتقى الخطيب مع الشاعر حول نفس المحور الذى شُغل بتأكيد قداسة الخلافة بحكم التفويض والاستخلاف الإلهى الذى ردد منه الأخطل قوله فى عبد الملك بن مروان :

الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يُسْتَسْقَى به المطر .

إذ تبدو صيغة (خليفة الله) هنا انطلاقاً من مفهوم جديد لطبيعة الخلافة ومصدرها الدينى ، وهو ما أصبح قاسماً مشتركاً بين شعراء العصر ، إذ ردده الفرزدق وجرير وغيرهما من شعراء الخلافة الأموية على نحو مما قاله جرير فى مثل هذا السياق :

ذو العرش قدر أن تكون خليفة ... والله ليس لما قضى تبديل

وإذا بالظاهرة تتأكد من خلال حوارات الخطباء مع جماهيرهم ، خاصة منهم خطباء السياسة الكبار ، ومنهم ما طرحه زياد هنا مما يذكرنا بما كان عليه أمر الخلافة لدى الرعيل الأول منذ أن وضع الصديق - رضى الله عنه - دستور الحكم بين الصواب والخطأ ، فما صدر - بحال - عن تلك العظمة التى سار عليها الخطباء الأمويون حين شغلوا بستجيل حقوقهم على الرعية قبل أى اعتبار آخر ، وهو ما صنفه الخطيب هنا عبر مستويين .

أولهما : أنهم يحكمون بتفويض من الله ، وهم أصبحوا - بهذا الاختيار - للناس جميعاً ساسة ، ومن ثم فلهم عليهم حق السمع والطاعة فيما أحبوا مطلقاً .

ثانيهما : أنهم يذودون عنهم ، وينفقون عليهم من الغنائم التى أفاء الله عليهم بها دون سواهم ، ومن ثم فهو يعد الرعية بنشر العدل وتوزيع الثروة بينهم ، إذا ما سمعوا وأطاعوا وكانوا أسوة فى مناصحتهم لبنى أمية دون سواهم من طلاب الحكم ومنظرى السياسة .

وكأن الخطيب هنا يذكرنا بما كان من مكانة الشاعر الأموى لدى الخلافة إذا ما تحول إلى «مستشار سياسى» للخليفة ، ينصحه ويوجهه بما يرضى غروره على نحو ما تحكيه الأخبار عن الأخطل حين عمَّم الصورة فى قوله لبنى أمية جميعاً :

بنى أمية إنى ناصح لكم .. فلا يبتينَّ فيكم آمناً زفر.

ولنا أن نتأمل موقف عبد الملك وهو يستمع إلى مثل هذا النصح وفى حضرته زفربن الحارث موضع التحذير ، فما كان من الخليفة إلا أن ضربه فى صدره بقدمه فأسقطه من سريره ، وهو ما يشى بمدلول هذه المناصحة ، خاصة إذا وقعت من شاعر مثل الأخطل عدته الدراسات الأدبية سفير قبيلته تغلب لدى الخليفة الأموى الحاكم (٧) .

ويتوقف الخطيب طويلاً ، وينوع فى أسلوبه بين الاجمال والتفصيل ليبين للجمهور خطر ما يقوله ، وأهمية ما يتوقف عنده ، إذ يتجاوز الأمر لديه منطق الطاعة والمناصحة ليمتد إلى الدعوة لأئمتهم بالصلاح تسليماً من الجمهور بأنهم ساستهم المؤدبون لهم ، وأنهم الملجأ الوحيد الذى يلجأون إليه ومتى صلح الإمام صلحت أمته ، وهو هنا بصدد موقف دينى منضبط له أصوله ومقوماته الدينية التى تسوجب صلاح الراعى والرعية جميعاً وهو ما يدفع الخطيب إلى تكرار التوجه إلى جمهوره بمطلب الحرص على الحاكم، والحب له، وعدم بغضه أو حتى إضمار ذلك البغض فى القلوب ، مما يترتب عليه فساد الرعية بين طول الغيظ ، وكثرة الحزن والعجز عن إدراك الحاجة ، وكأنه - بذلك - يحذرهم من تجاوز الحد فى معاملة الراعى ، ليدعو لهم وللحاكم دعاءً دينياً لأن يعين الله كلا على كل على حد تعبيره .

وكأنه يتخذ من مثل هذا الدعاء مدخلاً إلى بيان سياسته ، وكشفاً لمدى تحمله للتبعة ، وهنا يشتد عنفه ، وتبرز قسوته وتبين قوته ، خاصة حين ينبه جمهوره إلى ضرورة تنفيذ الأمور كما يريدها هو منهم ، وعندئذ يقسم بالله مهدداً ومتوعداً أن له ضحايا كثيرين ، فيحذرهم أن يكونوا ضمن هؤلاء الضحايا . وفى هذه الفقرة من الخطبة - بخاصة - تستوقفنا عدة ملاحظات :

أولاً : أن الخطيب قد تجاوز حدود السلف فيما خاطبوا به جماهير المسلمين من أمر الشورى أو الاعتراف بنقائص النفس البشرية ، أو تأكيد المقولات الدينية المسلم بها

فلا طاعة لمخلوق فى معصية خالقه ، وأن الخطأ يجوز على الخليفة طالما أنه بشر ، وهو ما تجاوزه الخطيب هنا عبر المنطلق الخطابى الجديد .

ثانياً : أن منطعف الخطابة السياسية فى العصر الأموى قد أدخل أفكاراً وافدة أصبحت قاسماً مشتركاً بين دعاة البيت الأموى من خطباء وشعراء حول الترويج لجبرية الحكم ، وطرح فكرة التفويض الإلهى ومنطق القداسة مما أحاط به الخلفاء أنفسهم ، وربما وجدوا فيها مأمنهم من مطالب الأحزاب المعارضة لهم .

ثالثاً : أن منطق الخطيب مع جمهوره غلب عليه ذلك التعالى ، وهو منطق جديد أيضاً . يتناقض مع ذلك التواضع الذى رأينا له أمثلة لدى الصديق - رضى الله عنه - فى جواز معصيته إذا أخطأ ، أو قارب تجاوز الحدود ، وهو ما نص عليه الفاروق رضى الله عنه فى ضرورة مراجعة النفس مراراً خاصة إذا تعلق الأمر بحد من حدود الله تعالى.

رابعاً : أن الخطيب قد قدم كل ما يجب على الرعية قبل توقفه عند حقوقها وهو ما وزعه بين صيغ التقرير والأمر والنهى (إنا أصبحنا - فلنا عليكم - فاستوجبوا - وادعوا الله - فإنهم ساستكم - ولا تُشربوا قلوبكم - ......)

خامساً : أن الخطبة تخلو تماماً من الاقتباس القرآنى فى هذا الجزء منها ، وحتى فى بقيتها سنجد الحس الدينى الذى يستحضره الخطيب يظل ضمن دائرة المؤثرات العامة التى لم يشغل فيها باللجوء إلى الاقتباس القرآنى الصريح كما رأينا عند أسلافه ؟، من خطباء عصر صدر الإسلام ، وهو ما يكشفه أيضاً موقع الخطبة ، وما عرفت به خطبته من تسمية خاصة ، بالبتراء ، لا نعدام هذا الحس الدينى منذ مطلعها .

سادساً : أن الخطيب هنا يكاد يفقد الرعية كل مقومات الإدراك للصحيح من الأمور ، خاصة إذا تذكرنا دستور أبى بكر حين صاغ الشرط فى حكمه مصنفاً بين الخطأ والصواب والتقويم والمعصية ؛ ذلك أن الأمر هنا لا يكاد يسير إلا فى اتجاه واحد لا يكاد الخطيب يخطئه ؛ خاصة فيما يتعلق بذاته حين ينفذ الأمر فيهم ، فعليهم عدم المراجعة أو التعقيب على أحكامه .

سابعاً : أن الخطيب قد عمد إلى منطق القسوة وإثارة الرعب فى نفوس جمهوره ، وهو ما صنّفه بين صيغ القسم والتوكيد بها ، وبإن المؤكدة ثم يعاوده بذلك التحذير المطلق لكل امرئ منهم لأن يكون واحداً من ضحاياه ، وهم كثيرون .

ثامناً : على المستوى الأسلوبى جمع الخطيب هنا مستويات متعددة تشد إليه جمهوره بين الرغبة والرهبة ، سواء فى ذلك ما اعتمد عليه من صيغ التوكيد المتنوعة ، أو ما ورد من صيغ الأمر والنهى التى أكثر منها فجاءت - بدورها - دالة على منهجه ، مؤكدة ما رمى إليه من وراء خطبته ، وهو ما اتضح لنا من واقع استقرائنا بقية فقرات الخطبة ، وتأمل ما وراء سطورها من دلالات أخرى .

هوامش الفصل الثالث

(١) تراجع ملامح هذه القسمة فى كتاب « الفن ومذاهبة فى النثر العربى » للدكتور شوقى ضيف .

(٢) التفاصيل عبر دراسة الشعر الأموى (دراسة فى البيئات للدكتور خليف) والتطور والتجديد للدكتور ضيف ، قضية الالتزام فى الشعر الأموى للباحثة .

(٣) مزيد من التفاصيل فى نفس الدراسات .

(٤) التطور والتجديد للدكتور شوقى ضيف

(٢) الكامل للمبرد ١٨١/١ ، والبيان والتبيين ١٦٤/٢ ، والعقد الفريد ١٥٣/٢ وتاريخ الطبرى ٢١٠/٧ ، وصبح الأعشى ٢١٨/١ ، وعيون الأخبار ٤٤٢/٢ مروج الذهب ١٣٢/٢ ، معاهد التنصيص ١١٥/١ ، والكامل لابن الأثير ١٥٦/٤ ، جهرة خطب العرب ٢٧٥/٢

(٣) ضمن قافية المتنبى المعروفة فى مدح سيف الدولة ومطلعها : أيدرى الربع أى دم أراقا .. وأى قلوب هذا الركب شاقا .

(٤) من رائية الأخطل التى نظمها فى مدح عبدالملك بن مروان ومطلعها : خف القطين فراحوا منك أو بكروا .. وأزعجتهم نوى فى صَرْفِها غِيَرُ .

(٥) البيان والتبيين ٢٩/٢، والعقد الفريد ١٥٠/٢، صبح الأعشى ٦١٣/١، تاريخ الطبرى ١٢٤/٦، الكامل لابن الأثير ٢٢٦/٣ عيون الأخبار ٢٤١/٢٢ ، وذيل الأمالى ١٨٨ ، جمهرة خطب العرب ٧٨/٢ - ٨٠ .

(٦) تراجع فى الدراسات الخاصة بالشعر الأموى مثل كتاب التطور والتجديد للدكتور شوقى ضيف ، اتجاهات الشعر الأموى للدكتور صلاح الدين الهادى ، الشعر الأموى : دراسة فى البيئات للدكتور يوسف خليف .

(٧) التطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف .



الفصل الرابع

الأبعاد الدينية فى الخطبة الأموية

(الامتداد والتطور)

١ - بين الزهاد وأهل السياسة

٢ - عند المتكلمين وأهل الجدل

٣ - لدى القادة

(أ) بين أهل السياسة والزهاد

استطاعت الخطابة السياسية أن تغطى ساحة الحياة الأموية عبر خطباء الأحزاب المختلفة وكأنما سارت فى نفس مساقات الشعر فى إطار من ظاهرتى التخصص والالتزام، ومن هنا بدت الخطبة الدينية ، وكأنها تراجعت عن موقعها فى العصر السابق يوم أن تداخلت المستويات السياسية والدينية والاجتماعية فى مساق واحد، - فلم تظهر وقتئذ - الفواصل التخصصية التى شهدتها الخطبة فى العصر الجديد .

وبدت الخطابة الدينية رهناً بالمواقف الحزبية ، ولكنها - فى هذا الإطار - ظلت مشوبة بالمطالب السياسية والنظريات المرتبطة بها ، فبدا المؤثر الإسلامى مجرد رافد من روافدها ، لا يتعدى هذا الدور حتى نستطيع تصنيفها ضمن مساق اللون الدينى الصريح.

ومن هنا ظلت المؤثرات الدينية قاسماً مشتركاً بين الخطباء وجدولاً من جداول فكر مثقفى العصر جميعاً ومنهم - بالضرورة - خطباؤه ، ولكن المؤثر الدينى شىء والخطابة الدينية شىء آخر مختلف تماماً .

ذلك أن هذا المؤثر سيظل وارداً فى كل الأنماط الخطابية تقريباً ؛ خاصة مع الترويج لمنطق القداسة الذى أرضى به الخطباء خلفاء بنى أمية من خلاله ، وهو ماوجد معارضة من قبل خطباء الأحزاب الأخرى ؛ الأمر الذى تمخض عن رصيد من النظريات السياسية التى حاول أصحابها اقتحام الأبعاد الدينية ضمن مقولاتهم ، لعلهم من خلالها يستطيعون الترويج لمذاهبهم ، أو إقناع جماهير العامة بها .

فإذا تجاوزت الخطابة ميدان السياسة ، وإذا ما خاضت الأحزاب مجال الفرق الدينية بين الإرجاء والاعتزال والقدرية والجبرية ، وإذا دارت كل فرقة فى أطرها الخاصة من منطلق التمسك بالنظرية والترويج للمذهب نجد الخطابة الدينية وقد اقتحمت مجالات جديدة كانت الدولة الإسلامية فى منجاة منها عبر جيل السلف طوال عصر الراشدين - رضى الله عنهم . ومعنى هذا أن القياسات الخطابية على هذا المستوى الدينى قد شهدت أرضاً جديدة ، وخاضت ساحات متميزة ، وغيَّرت المسار التقليدى الذى ظهر فيه الخطيب

واعظاً ومرشداً وموجهاً للأمة ، وعندئذ نهض بدورين بارزين : دور العابد ، ودور العالم العامل الذى يستكمل بخطابته ما سار عليه شعراء الزهد وأنصاره فى زحام الاتجاهات الحضارية الجديدة .

من واقع تلك البيئة الجديدة ومن منطلق صراعاتها السياسية والدينية المتعددة لم يبق بين أيدينا من الخطابة الدينية الصريحة إلا ما بثه الخطباء على المنابر من خطب دينية موجهة إلى الرعية يرتبط بعض منها بأعياد المسلمين وجُمعهم ، وقياساً عليها كانت خطابة الوعاظ والزهاد من ذلك الرعيل الذى مثل امتداداً طيباً لسلوك زاهد الأمة وعابدها الأول صلى الله عليه وسلم .

وبذا بدت الخطابة الدينية فى باب الزهد وكأنها تمثل هذا الامتداد فى أنقى صوره بعيداً عن ضجيج السياسة ، وزحام المصالح الكبرى التى شغلت الناس ، ووزعتهم فرقاً وأحزاباً متناحرة يكفر بعضها بعضا.

ومن هنا - أيضاً - ظلت مصادر الخطابة الدينية فى حدود الزهد ذاته دالة على صفاء مصادرها الإسلامية ، خاصة حين شغل زهاد العصر وطلائعه بالتأصيل لمذاهبهم من منظور دينى قبل ظهور طلائع التصوف وزحام المؤثرات الوافدة ، وبذا بدا الزهد إسلاميٌ النشأة والفكرة ، مستوعباً جوانب المادة الإسلامية من واقع وعى الزاهد بحسه الدينى العام ، إلى الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، إلى التوقف طويلاً عند قضية المصير، وتأمل مشاهد ما بعد الموت من البعث والنشور والثواب والعقاب والجنة والنار ... وهو ما أكمله زهاد العصر أيضاً من واقع انشغالهم بقضايا الأرزاق وتوزيعها من قبل الخالق سبحانه بين البشر ، دون دعوة إلى تكفف من الناس ولاتسول ، وهو ما ظل سياجاً أميناً يحفظ للزهد الإسلامى نقاءه وصفاءه وخصوصية مصادره .

وبذا ظل الانشغال بقضيتى المصير والأرزاق قاسماً مشتركاً بين الزهاد فى مجالسهم ، وفى عكوفهم على العبادة فى المساجد ، دون تطرق إلى المصادر الأخرى التى وفدت إلى الزهد الإسلامى سواء ما دار حول فكرة « الخطيئة » أو « الرهبنة » أو « تعذيب الجسد » أو ما يشبه ذلك من مصادر غير إسلامية .

ويظهر من خلفاء بنى أمية من شجع الزهاد ، وأخذ عنهم ، وتتلمذ عليهم ، حتى صار واحداً منهم ، تميز بين خلفاء عصره ، وأعاد إلى ذاكرة الناس ما كان من صفاء زهد

السلف الصالح ، على نحو ما عُرف عن عمر بن العزيز من زهد وورع وتقوى كشفه موقفه من الزهاد من ناحية ، ثم موقعه بينهم كزاهد أيضاً من ناحية أخرى .

ويتوقف زهاد العصر عند المعجم الإسلامى يستمدون منه مادتهم التى حاولوا من خلالها تجاوز فتن الدنيا وغروها ، كما حاولوا إنقاذ الرعية من ضجيج الحضارة وضجتها حتى كادت تفتنها بصرفها عن تكاليف الدين وعباداته ، وبذا كانت مواقف الزهاد أقرب ما تكون إلى البحث عن ضرب من التوازن فى مساقات الحياة الأموية ، فبدا بمثابة الإنذار الذى ينبه إلى ضرورة العمل للآخرة ، وانتظار الانتقال إلى دار البقاء وما فيها من ضروب الثواب والعقاب .

وفى خطبته التى اخترناها كشفاً عن زهده توقف الحسن البصرى عند المعانى الإسلامية التى استهلها بحديثه عن الآخرة ومشاهد الغيب حيث لا يكتمل إيمان المسلم إلابها فيرتدى بذلك ثوب الناصح والمرشد لا لشخص بعينه ، ولا لفرقة محددة ، بل تتسع دائرة جمهوره لتعم الناس جميعاً من حوله من حضر منهم مجالسه واتسق معه فى مناقشاته ومناظراته ، أو حتى من انشق عليه وخرج على مجالسه على نحو ما وقع من واصل بن عطاء وفرقته الاعتزالية ومن هذا المنطلق جاء عموم الخطاب من قبل الواعظ لجمهوره فهو حين يقول يابن آدم فكأنما عمَّم النداء للبشرية عبر كل زمان .

قال الحسن البصرى رحمه الله [1] :

« يابن آدم : بِعْ دنياك بآخرتك تَرْبَحْهُما جميعاً ، ولا تبعْ آخرتك بدنياك فَتخْسَرَهما جميعاً : يابن آدم : إذا رأيت الناس فى الخير فنافِسْهُم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشرّ فلا تَغبِطهم عليه ، الثَّواء [2] هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، أمَّتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أُسرع بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعايَنَة ؟ فكأنْ قَدْ ، هيهات هيهات ! ذهبت الدنيا بحالِيها [3] ، وبقيت الأعمال قلائدَ فى أعناق بنى آدم . فيالها

(١) هو أبو سيد الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى ، من سادات التابعين ، وأروع العباد والمتنسكين وإمام أهل العلم والرأى فى عصره ، وأستاذ واصل بن عطاء شيخ المعتزلة .

(٢) الإقامة .

(٣) أى بزمنها الحالى ، من حليت المرأة كرضى فهى حال وحالية : لبست الحلى ، والمعنى ذهبت بزخرفها الذى تزينت به الناس فأضلتهم وأغوتهم .

موعظةً لو وافقت من القلوب حياةً ! أمَا إنه والله لا أُمَّةَ بعد أمتكم ، ولا نبيَّ بعد نبيكم، ولا كتابَ بعد كتابكم ، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم ، وإنما يُنتظر بأولكم أن يَلْحقه آخِرُكم ، من رأى محمداً - صلى الله عليه وسلم - فقد رآه غادياً ورائحاً ، لم يضع لَبِنةً ، على لبنةٍ ولا قَصَبَة على قصبة ، رُفِع له عَلَم فشمرّ إليه [1] فالوَحَاء الوَحَآء [2] وَالنَّجَاء النجاءَ ، عَلاَم تعرّجون ؟ أُتيتُمْ وَرَبِّ الكعبة ! قد أسرع بخياركم : وأنتم كل يوم تَرْذُلون [3] ، فماذا تنتظرون ؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمداً عليه الصلاة والسلام على عِلْمٍ منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عيه كتابه ، وكان صَفْوَته من خَلْقه، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا مَوْضِعاً ينظر إليه أهلُ الأرض [4] ، وآتاه منها قُوتاً وبُلْغَة ، ثم قال : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ». فرغب أقوام عن عيشه ، وسخِطُوا ما رضى له ربُّه ، فأبعدهم الله وأسحقهم [5].

يا ابن آدم : طء الأرض بقَدَمِك ، فإنها عن قليل قَبْرك ، واعلم أنك لم تزل فى هَدْم عمرك مُنذ سقطت من بطن أمّك . رحم الله رجلاً نظر فتفكّر ، وتفكّر فاعتبَر ، وأبصر فصَبَر ، فقد أبصر أقوام ولم يصبروا ، فذهب الجَزَع بقلوبهم ، ولم يُدْرِكوا ما طَلَبوا، ولم يَرْجعوا إلى ما فارقوا.

يابن آدم : اذكر قوله : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ [6] فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ، اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ». عَدَلَ وَاللهِ عليك مَن جعلك حَسِيبَ نفسك ؛ خذوا صفا الدنيا ، وذَرُوا كَدَرها ، فليس الصفو ما عاد كَدَرا ، ولا الكَدَر ما عاد صَفْوا ، دعُوا ما يَرِيبكم إلى مالا يريبكم ، ظَهَر الجَفَاء وقَلّت

(١) وفى رواية : « فسما إليه ».

(٢) الوحا : العجلة والإسراع .

(٣) أى تصيرون أرذالاً جمع رذل : وهو الدون الخسيس .

(٤) أى موضعاً سامياً .

(٥) أى أبعدهم ، « وسحقهم » : أى أهلكهم .

(٦) أى عمله فى عنقه ، والتعبير به لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بالطائر السانح والبارح ؛ استعير لما هو سبب الخير والشر .

العُلماء ، وعَفَت [1] السُّنة ، وشاعت البِدْعة ، لقد صَحِبتُ أقواماً ما كانت صحبتُهم إلا قُرَّةَ العين ، وجِلاءَ الصدور ، ولقد رأيت أقواماً كانوا - من حسناتهم أن تُردَّ عليهم - أشفقَ [2] منكم - من سَيِّئاتكم أنْ تُعَذَّبوا عليها - ، وكانوا فيما أحلَّ الله لهم من الدنيا أزهَدَ منكم فيما حرَّم الله عليكم منها ، مالى أسمع حسيساً ، ولا أرى أنيساً ، ذهب الناس وبقى النِسْناس [3] ، لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهادَيتم الأطباقَ ، ولم تتهادَوا النصائحَ ، قال ابن الخطاب : « رَحِم الله أمرأ أهدى إلينا مَسَاوِيَنا » أعدّوا الجواب ، فإنكم مسئولون ، المؤمن من لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكنه أخذه من قِبَلِ ربّه ، إن هذا الحق قد جَهَدَ أهلَه ، وحال بينهم وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عَرَف فضله ، ورجا عاقبته ، فمن حمد الدنيا ذمَّ الآخرة ، وليس يكره لِقاء اللهِ إلا مُقيمٌ على سُخْطه .

يابن آدم : الإيمان ليس بالتحلّى ولا بالتمنّى ، ولكنه ما وَقَر فى القلوب ، وصَدَّقه العمل [1] .

وهنا يبدو الواعظ الزاهد مطمئناً إلى سلامة مصادره ، وصدق مقولاته ، مرشداً من خلالها ، مستخدماً صيغ الأمر المعبرة عن حرصه على إنقاذ جمهوره من مهالك الدنيا وفتنها ، متخذاً من المادة القرآنية مصدراً أساسياً ينطلق من واقع أصوله ، حيث يقتفى دلالة الآيات الكريمة حول الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فما ربحت تجارتهم ، فإذا به يتوقف عند نفس المعانى حين يطالب على المستوى الاستعارى ببيع الدنيا وشراء الآخرة ، وهو يعقد موازنة دقيقة بين الربح والخسران ، ويطرح هذه المقابلة بين بيع الدنيا وشراء الآخرة وضمان الربح لاثنين معاً ، وبين بيع الآخرة وشراء الدنيا وخسارة كل منهما فى نفس الوقت .

---

(١) محيت .

(٢) أخوف .

(٣) فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه « ذخب الناس وبقى النسناس قيل : فما النسناس ؟ قال : الذين يتشبهون بالناس ؛ ولهم فى تفسير النسناس كلام كثير منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوهم فى أشياء وليسوا منهم .

ومن نفس المنطلق الوعظى يوجه الناس ويدفعهم إلى التنافس فى أبواب الخير ، ويحاول أن يجنبهم أبواب الشر ومجالاته ، مؤكدا حواره بتلك التقريرية الخطابية المباشرة وهو ما يستهدفه من مثل هذه التوكيدات المباشرة التى يردف بعضها إثر بعض على غرار تأكيده أن البقاء فى الدنيا قليل فى مقابل البقاء الطويل فى الآخرة .

فإذا ما عمد إلى صيغ القسم والتوكيد الحرفى راح يؤكد لجمهوره أن أمتهم هى آخر الأمم ، وأن رسولهم هو آخر رسل رب العالمين ، وأن الكتاب الحكيم آخر كتب السماء إلى البشر ، وجميعها معانٍ دينية راح يستشفها من واقع الآية الكريمة « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وكأن الزاهد يخشى من أن يصيب جمهوره شيء من غرور أو أحساس بالتمايز على بقية البشر إلا من منظور دينى ، فتتلاحق الجمل لديه بما يستهدف كبح جماح النفس البشرية وإيقاف تضخمها الزائف تذكيراً دائماً بقضية المصير ، على هذا النحو الذى أورده كلامه فى خطابه للناس بأنهم فتحوا الدنيا ، وقهروا الامبراطوريات الكبرى ، وكانوا سادة غالبين ، ولكنهم يجب ألا يتجاوزوا الحد أمام حتمية الموت الذى يلاقيهم وقيام الساعة التى ترقبهم ، وهذا هو المحك الأولى فى حياة الزاهد : انشغال دائم بقضايا المصير ، وماذا بعد الموت الذى يلاحق الأجيال كل تلو الآخر ، وهنا تنصرف ذاكرة الزاهد العابد مراراً إلى تذكر سيرة السلف الصالح والقدوة الحسنة ، وكأنه يضع أمام الزهاد نموذجاً من سبل الاستقامة فى طلب العيش ، فلا تكفف للناس ، ولا تسول ولا احتيال ، فالمؤمن العابد لابد أن يكون عاملاً، وهو يستحضر هنا صورة الزاهد الأول عليه السلام فى غدوه ورواحه من أجل أن يعيش حياة أساسها التقشف والورع دونما انشغال بثراء الدنيا ، ولا ركون إلى زخارفها وفتنها .

وعندئذ يعمد إلى الاقتباس الصريح المباشر من الآيات القرآنية الكريمة ، بدءاً من انشغاله بموقع الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) لأن يكون أسوة حسنة كما وصفه ربه بعد أن وهبه الخلق العظيم ، وجعله بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، فما كان فظاً ولا كان غليظ القلب ، بل دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل القوم بالحسنى ، فكان أهلاً للقدوة العليا التى يحتذى بها الزهاد والقادة على مدار عصور الزمن بعد ذلك.

ويشغل الخطيب عَوْدٌ إلى لغة الخطاب على إطلاقها ، وتوجُّه متكرر إلى

الجمهور، وهو تقليد خطابى عريق ، فكأنما يريد الخطيب من جمهوره دائماً أن يتوقف معه عقلاً ووجداناً وهو مايدعوه دوماً إلى هذا التنبيه العام لابن آدم ، طالباً منه ألا يغتر بمعطيات الدنيا ، وأن يترفق بالأرض التى يسير عليها فهى قبره بعد حين طال به الأجل أو قصُر ، وكأنه يدعو إلى التواضع الذى نص عليه مدلول الآيات الكريمة « واقصد فى مشيك » « إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » وكأنى بأبى العلاء فى القرن الخامس يلتقط الصورة من البصرى حيث ينشد قوله :

خففّ الوطء ما أظن أديم إل   أرض إلا من هذه الأجساد [٢].

وتأكيداً لمطلب التواضع يدعو الخطيب جمهوره إلى تأمل قضية الخلق والانشغال بقضية المصير وفناء العمر مابين الميلاد والموت ، مستوحياً بذلك الدلالات الدينية حول قضية الخلق البشرى « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » [٣] .

وهنا يستوقفه المنهج الدينى المتكرر حول حتمية الموت وما بعده من بعث ونشور «ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » وعندئذ يتوقف عند الدعوة الدينية المتكررة إلى أيضاً الاجتهاد والتفكر والتدبر والاعتبار والبصر والصبر ، وهو ما يدعمه بالاقتباس القرآنى المباشر مذكراً ومنبهاً ، ومؤكداً قضية العدل الإلهى من واقع مدلول الآيات ربطاً بين منطق الثواب والعقاب والجزاء الصادر من جنس العمل .

وبعدها يعود الزاهد إلى منطقة التنفير من الدنيا ، ولكنه ليس تنفيراً مطلقاً ، مما يظل خطا فاصلاً بين « الزهد » و « الرهبنة » ، فهو يدعو إلى التمتع بطيبات الدنيا كما أحلها خالقها سبحانه وتعالى ، كما يحذر من الانغماس فى فتنها وغرورها ، مركباً الصورة من ذلك التضاد بين الصفاء والكدر ، وبين الأخذ والرفض ، ومن ثم تتكشف حقيقة الزاهد المسلم الذى يأخذ نفسه بالانقطاع عن فتن الدنيا ، فهى مازالت أمامه دار عمل يضبط فيها حركته ، ويحكم وجهته ؛ وعندئذ يتخذ من حديث رسول الله صلى عليه وسلم هادياً له ، ومتذكراً فى نفس السياق زمن الصحابة رضى الله عنهم ، وما كان من قرة عينه بصحبتهم، وجلاء صدره من خلال معاشرتهم ، وكأنما وقف عند فواصل الزمان التى كشفت الفارق بين سلوك أولئك الزهاد ، وبين وقائع الحياة الصاخبة فى جيله ، ثم

تمتد المفارقة لديه لتكشف عما يدور فى نفسه من طموح إلى ارتقاء الخلف إلى مناهج السف ، مما يبعث فى ضميره قدراً من التشاؤم فأين هؤلاء من أولئك الذين عاشوا الحب الإلهى شغفاً بثواب الآخرة ، أكثر من هؤلاء الذين شغلهم الخوف من العقاب على سيئاتهم وكانوا- أى السلف - فى موقفهم من الدنيا ، وما أحل لهم من خيراتها أزهد من جيله الذى يتوق إلى ما حُرّم عليه منها . فهى المفارقة البعيدة بين زاهد أصّل لزهده من واقع قناعته به ، وبين زاهد تشده نزعات النفس ونقائصها إلى مطامع الدنيا وفتنها ، ثم يستطرد حول المادة الحديثية حيث يتخذ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نبراساً هادياً له وموجهاً ، وكأنما راح يدعو إلى ضرورة الوضوح والتكاشف بين الناس فلو ظهرت عيوب بعضهم للبعض لاستثقلوا السير فى الجنائز ، وإذا بالحسن تأخذه عزة الزاهد وحرصه على نقاء جمهوره ، وعرض صفاء سريرته ، مؤاخذاً للناس على ما هم فيه من انشغال دائب بالدنيا ، ومثيراً لسخرية من هذه المفارقة التى يطرحها بين التهادى بالأطباق ، ونسيان التهادى بالنصائح ، وعندئذ يدعم قوله بما كان من مسلك الفاروق - رضى الله عنه - فى زهده وتقواه ، وورعه وتواضعه يوم أن دعا لمن أهدى إليه مساوئه حتى يتجنبها فهو إهداء من نمط دينى يدعو إلى التأمل ومراجعة النفس حول الاقتداء بسلوك الأوائل .

ويتحول الزاهد إلى مؤصل لقضايا العقيدة التى بدا شديد الارتباط بها والصدور عنها ، وكأنما توّج حواره حول قضية المصير بضرورة الدعوة إلى إعداد الجواب قبل يوم السؤال ، وعندها يعيد الخطاب المطلق إلى ابن آدم كاشفاً له عن حقيقة الإيمان من منطلق دينى محض ، ربطاً بينه وبين العمل، متخذاً مادته من دلالات الآيات القرآنية « إن الذين آمنوا وعلموا الصالحات ... » « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا .... » قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم .... » ذلك أن الإيمان الحق يظل كامناً فى القلب ، مصدقاً من خلال الأعمال، وهو ما استشعره قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان» وما ترددت أصداؤه فى مسلك عمر رضى الله عنه تحت شعار « لنا الظاهر والله أعلم بالسرائر »

ومن هنا كانت خطبة الحسن البصرى دالة على طبيعة زهده كاشفة عن توجهاته الدينية الصحيحة ، فكان امتداداً طيباً للسلف الصالح ، بدا حريصاً على نفسه وعلى جمهوره معاً ، وهو ما يدفعنا إلى رصد الملامح الفنية التى تميز الخطبة من عدة زوايا :

أولها : ما تبرزه اللغة البسيطة المباشرة التى يتجنب فيها الخطيب التعقيد والغموض ، ومن ثم بدت لغة تقريرية سهلة الأداء ، بعيده عن التصوير والمجاز ، لتبدو أدل على الإفهام ، والاقتراب من العقول دون حواجز لغوية ، مما يكشف عن انشغال الزاهد بتوصيل المعلومة إلى جمهوره فى سياق سهل وواضح .

ثانيها : ذلك الاتكاء المتكرر على المعانى الدينية ، مع تعدد مصادرها ، مما يدفع الزاهد إلى الاقتباس من الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والاهتداء بمسلك السلف الصالح ، مما ترددت منه شواهد كثيرة فى الخطبة عبر الحس الدينى العام والعبادات والشعائر وصيغ الحياة الزاهدة .

ثالثها : ذلك التركيز المتكرر والاستطراد حول الأصول الدينية التى استوقفت الخطيب مراراً فراح يعرض لها كلما خشى انشغال جمهوره بغيرها وهو ما رأيناه عبر المفارقات المطروحة بين صور الدنيا والآخرة فى أكثر من مشهد .

ثم يأتى بقية حوار الزاهد حول قضية الأرزاق من نفس المنظور الدينى الذى عالج من خلاله قضية المصير :

فيتوقف عند الطرق المشروعة لكسب الرزق ، ثم كان وسطاً فى إنفاق ماله ، وهو هنا يردد - بالطبع - من المعانى القرآنية ما استقر فى ذاكرته حول هذه القضايا ، سواء ما عكسه من معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل جسم نبت من حرام فالنار أولى به » أو ما صوره من معانى الآية الكريمة « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » وعندئذ يبدو الزاهد شديد القرب من تعاليم الشريعة ، حيث يلجأ إلى استخدام صيغ الأمر الدالة على حرصه على جمهوره ، وصدقه معه ، فيدعوه إلى توجيه الإنفاق إلى حيث أمر الله ضمن أبواب الجهاد والزكاة والصدقات ، بما يكفل للمسلم حياة كريمة بين إخوانه ، وهو يؤكد نصيحته بالتذكير بالماضين من باب العظة والاعتبار ، خاصة منهم من شغلته فتن الدنيا حين جعلوها كل همهم، وهو ما يحذر منه الزاهد الذى شغل بأمر الآخرة والحساب قبل أى اعتبار دنيوى آخر يمكن أن يجعل الدنيا مبلغ همه وعلمه،وهو هنا أيضاً يستدعى سلوك السلف الصالح مما عُرف عنهم من الإيثار وحب المساكين حيث كانوا « يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» فلم يعرفوا شح الأنفس ، ولم يجعلوا زخرف الدنيا أساساً لحركتهم خلال زحامها .

وفى مفترق الطرق بين الدنيا والآخرة يتوقف الزاهد عند الموت كظاهرة انتقالية حتمية ، تأتى على الدنيا فتفضح حقيقتها وهو ما يؤكده قسماً من أن العاقل لا يجب أن يقع فى شراكها ، ولا أن تغره فتنها ، ولا يفرح بها ، فهى مجرد معبر إلى طرق الضلالة والضلالة تنتهى حتماً إلى النار بكل أهلها .

وعلى عادته فى خطابته توقف الحسن عند ذكرى السلف الصالح فى عصر صدر الإسلام من تصوير رجال صدقوا ما عاهدوا عليه ربهم ، فكانوا غارقين فى العبادات ، يقومون الليل ، يبكون من خشية الله ، وتطول مناجاتهم لربهم ، ليخلص رقابهم من شهوات الدنيا حتى لا يقعوا فى حبائلها ولا تستهويهم مغرياتها .

ثم يكرر عموم خطابه لابن آدم حول دعوته إلى القناعة بما قسم الله له من الرزق معتمداً على هذه المقابلات اللفظية بين ما يغنيه وما يعنيه ، وما يكفيه من قليل الدنيا الزائلة ، أملاً فى ثواب الآخرة الباقية .

أما عن المستوى المعالجة الفنية فيظل قريباً من خفة الصنعة لدى الزهاد بعامة ، حيث تجاوزوا حد الانشغال عن مقاييس تلك الصنعة بقدر ما شغلهم الجمهور ، وحرصهم على حدود الإفهام وضمانات الإقناع وهو ما يبين لنا من هذه المقابلات المتعددة بين : الدنيا والآخرة ، البيع والشراء ، الربح والخسارة ، التنافس والغبطة ، الخير والشر ، البقاء الطويل والقليل ، الغدو والرواح ، الصفاء والكدر ، الحسنة والسيئة ، الحلال و الحرام ، التهادى وعدم التهادى ، السؤال والجواب ، اليقين والعمل ... ويتضح جلياً طبيعة التجانس بين هذه المقابلات من خلال محورين اثنين يلتقيان دوماً حول رؤية الزاهد للدنيا والآخرة ، أو بين زهده ومجون الآخر ، مما يبرر كثرة الصور المتضادة ، ويؤكد حتميتها فى هذا الأداء المتميز لدى الخطيب الزاهد . وفى حواره حول قضية الأرزاق يدور فى نفس السياق بين جيله وسلفه ، بين الأثرة والإيثار ، الحياة والموت، الضلالة والهدى ، القناعة والطمع .

ولا شك أنها مقابلات عفوية طرحها الزاهد من واقع معايشته للمتغيرات من حوله، ومشاهدته للثوابت التى تشبثت بها ، فكان أميناً فى نقل صورة حياته وحياة قرنائه من زهاد العصر ، كما كان أميناً مع جمهوره ، فما أثقل عليه بهذه المقابلات بقدر ما أوضح له معالم التناقض الحتمى بين المواقف حلالها وحرامها على السواء .

كما تأتى المجانسات اللفظية لديه دالة على ما يرمى إليه من استخدامها فالناس يسوقون الناس ، والساعة تسوقهم جميعاً ، وهو ما يزداد فيه عنصر الصنعة ، حيث يعمد إلى حسن النسق ، والتدرج المنطقى الواضح من وراء مثل قوله :

نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فابصر ، وأبصر فصبر إذ لا يخفى القياس المنطقى لما بين الفكر والاعتبار ، والإبصار والصبر من علائق يأخذ بعضها بعناق بعض .

ومن البديهى أن يكون المصدر الإسلامى هو الأساس الذى ينطلق منه الزاهد ويستوحي مادته خطيباً كان أو غير خطيب ، وهو ما يتراءى لنا فى انشغاله بربه وترديده للفظ الجلالة مراراً عبر خطبته ، ثم يتأكد الموقف لديه من خلال حواره حول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمة الإسلام ، وجيل الصحابة ، ثم ما كان من اقتباسه من الآيات القرآنية التى يزيد بها أقواله ، مؤكداً من خلالها كل ما يذهب إليه ، ثم تأتى صيغ الدعاء فى ثوبها الإسلامى المتميز دالة بدورها على نفس المسار الدينى الذى أخذ الزاهد به نفسه .

ويبدو انشغال الخطيب هنا بالشواهد التاريخية والدينية أصلاً خطابياً يستعين به ويلجأ إليه ، وهو يتوقف عنده مراراً من قبيل تأكيد انتمائه الدينى من ناحية ، ثم تأكيد إيقاع أقواله لدى جمهوره من ناحية أخرى .

وبين النص والتاريخ تكون سياحة الخطيب ترغيباً وترهيباً ، مما قد يدفعه إلى اعتماد الصيغ الخطابية المعروفة بين الأمر والنهى ، والقسم ، والتوكيد ، والتضمين ؛ وكلها تدور فى نفس الأطر التى شغل بها ، وقصد إلى بثها لجمهوره من واقع أرصدته الدينية .

ومن واقع هذه الخطبة وأشباهها يقف الحسن البصرى على رأس خطباء عصره ووعاظه ومرشديه وموجهيه ، ويعد - بهذا القياس - صاحب مدرسة متميزة لا تنتهى إلى صنعة معقدة ولا تأنق لفظى تصويرى بقدر ما بدا قريباً إلى نفوس جمهوره ، وعقول مخاطبية ، يبثهم نصائحه ومواضع اعتباره موثقة من واقع النص القرآنى من ناحية ؛ ومن سيرة السلف الصالح من الصحابة رضى الله عنهم من ناحية أخرى .

(٢) عند المتكلمين وأهل الجدل

وهنا بدأت الخطبة تنحو منحى جديداً يتسق مع إيقاع العصر ، ويساير طبيعة الحياة العقلية فى البيئة الجديدة التى اختلفت فيها الآراء ، وتعددت مدارس الكلام ، وانقسمت الفرق الدينية بين واصلية معتزلة وبين زهاد ، وقدريه ، وجبرية ، ومرجئة ، ولكل نظريته التى لا يأخذ بغيرها ، ولكل مقومات جدلية يتشبث بها بين مقدمات ونتائج تنتهى إلى إقناع جمهوره بكل مقولاته صغيرها وكبيرها على السواء .

وتعددت مجالات الجدل وبدأت مدارس علم الكلام تمارس أنشطتها الخطابية ، وسارت الخطبة فى اتجاهات موازية لالتزام الشعراء فى المجالات السياسية والدينية جميعاً ، وربما ازداد اذدهارها وأهميتها مع ظهور أقطاب لها كبار تباروا فى درجات الإجادة ، وشغلهم منطق الإقناع حتى وإن ألبسوا الباطل ثوب الحق فصدروا عن مقدمات باطلة لينتهوا - بالضرورة - إلى السيطرة على الجمهور وإقناعه فحسب .

وإذا كنا قد عرضنا لمسك زاهد مثل الحسن البصرى فى بساطة أدائه واتساق مصادره مع مقولاته سواء فى حياته الشخصية أو من خلال مجالسه وطلابه أو حتى من خلال من تحاور معهم من خلفاء العصر كما كان فى موقفه من نصحه لعمر بن عبد العزيز أو حواره حول صفات الإمام العادل (٣) .

فإذا بغيره يتجاوز مسلكه وينشق عليه كما نعرف من واصل بن عطاء وأتباعه حين اختلف مع الحسن فى تحديد منزلة المؤمن الفاسق ، وكيف يكون مصيره ويحكم فى أمره ؟ هل سيشمله العفو الإلهى أم يعاقب باعتباره كافراً كما قال الخوارج أم يوضع فى منزلة بين المنزلتين كما قال واصل ورفاقه ، وهنا بدأ اللون الخطابى يخوض مجالاً جدلياً جديداً شهدت تطوراً آخر بعد ذلك عبر فترات من العصر العباسى على عهد المأمون والمعتصم والواثق ، ولكن بداياته فى العصر الأموى - على أية حال - تعد باباً جديداً من أبواب الفن الخطابى الذى تجاوز مراحل التأثر الإسلامى الصريح التى عهدناها لدى الرعيل الأول، والتى شغل أصحابها بالوعظ والإرشاد والتوجيه والإنذار سواء منها ما اتجه إلى الرعية على الإطلاق ، أو ما خص به من الجند والقادة حال توجههم إلى الأقاليم المفتوحة.

هكذا اتسعت الامبراطورية الإسلامية الكبرى ومعها كان الاتساع العقلى والاطلاع على ثقافات كثيرة تعربت ودخل أهلها الإسلام ، ومشاركة كثير من الأعاجم فى صراعات

الفكر وتياراته المتعددة ، وبدأت طلائع الزهاد تبشر بتجاوز المصادر الإسلامية إلى التأثر بمصادر أخرى أجنبية ، وبدأت مقدمات الفكر الفلسفى تعرف طريقها عبر رجال الكلام وأهل الفرق ، وربما كان فى هذا الضجيج العقلى ما يمثل قياساً خطابياً متشابهاً يكاد يوازى ما دار من جدل آخر فى مجال فن النقائض الأموية التى ربما عكس شعراؤها بدورهم طبيعة العقلية الجديدة التى تشكلت فى زحام تلك الحياة بكل صور ضجيجها وزحامها الجدلى .

ويتحول هذا الحصاد العقلى إلى صنعة مقصودة تأخذ أبعاداً جديدة يغلب عليها منطق الصراع والتحدى ، وإذ بواصل بن عطاء يعرض أمام جمهوره من تلاميذه وخاصته وبين العامة قياسات مهاراته اللغوية وتمكنه من زحام اللغة وامتلاكه لمعجمها عبر خطبته المنزوعة الراء ، والتى حرص فيها بذكائه وتمكنه من تجاوز هذا الحرف حتى لا يبين أثر لثغته أثناء إلقائه الخطبة بين جمهوره ، وعندئذ لا نجد إلا آثاراً واضحة للصنعة الخطابية المقصودة التى يحكى منها جانباً هذا السلوك الجديد لواصل ، فالمجال وليد البيئة وحرص الخطيب على هذا التحدى وليد الظروف الجديدة التى دفعت به إلى إعداد خطبته على هذا النحو من التصنع وهو ما يمكن قراءته لبيان خصوصية هذا الأداء الفنى باعتباره جديداً مع العصر الأموى ، حيث قال :

الحمد لله بلا غاية ، والباقى بلا نهاية ، الذى علا فى دُنُوّه ، ودنا فى عُلُوّه ، فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يئُوده [١] حِفظ ما خلق ، ولم يخلقه على مثالٍ سبق ، بل أنشأه ابتداعاً ، وَعَدَّله اصطناعاً ، فأحسنَ كل شىء خَلقه ، وتَمم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدل على أُلوهيَّته ، فسبحانه لاَ مُعَقِّبَ [٢] لُحكمه ، ولا دافعَ لقضائه ، تواضع كل شىء لِعَظمته ، وذلَّ كل شىء لسلطانه ، ووسِع كلَّ شىء فضلهُ ، لاَ يعزُبُ عنه مثقالُ حَبة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده ، إلهاً تقدَّست أسماؤه ، وعَظُمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزَّه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلُغه الأوهام ، ولا تُحِيط به العقول ولا الأفهام ، يُعْصَى فيحلُم ، وَيُدْعىَ فيسمَع، ويقبل التوبة

(١) يثقله ، آداه أودا (كنصر) بلغ منه المجهود .

(٢) لا راد له .

من عبادة ، ويَعْفُو عن السَّيِّئات ، ويَعْلَم ما تفعلون ، وأشهد شهادةَ حق ، وقولَ صدق ، بإخلاصِ نيَّة ، وصِحَّة طَوِيَّة ، أن محمد بن عبد الله عبْده ونبيه ، وخالصته [1] وصَفيُّه ، ابتعثه إلى خلقه بالبيِّنة والهدى ودين الحق ، فبلَّغ مَأْلُكته [2] ، ونصح لأمته ، وجاهد فى سبيل الله ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا يَصُدُّه عنه زعم زاعم، ماضياً على سنته ، مُوفياً على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فصلى الله على محمد ، وعلى آل محمد أفضلَ وأزكى ، وأتم وأنمى ، وأجلّ وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائكته ، وأضعاف ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والعمل بطاعتهِ ، والمجانَبة لمعصيتهِ ، وأَحُضكم على ما يدنيكم منه ، ويُزْلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضلُ زاد ، وأحسن عَاقبة فى مَعادٍ ، ولا تُلهِيَنكم الحياة الدّنيا بزينتها وخُدعها ، وفواتنِ لذاتها ، وشهوات آمالها ، فإنها متاع قليل ، ومُدة إلى حين ، وكل شيء منها يزول ، فكم عاينتم من أعاجيبها ، وكم نصبَتْ لكم من حبائلها ، وأهلكت من جَنح إليها ، واعتمد عليها ! أذاقتهم حلواً ، ومزجت لهم سماً ، أين الملوك الذين بَنَوا المدائن ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحُجَّاب ، وأعدُّوا الجياد ، ومَلَكوا البلاد ، واستخدموا التّلاد ، قَبَضتهم بَحْملها [3] ، وطحنتهم بكلْكلِها [4] ، وعضَّتهم بأنيابها ، وعَاضَتهم من السَّعَة ضِيقاً ، ومن العزة ذُلاً ، ومن الحياة فَناء ، فسكنوا اللحود ، وأكلهم الدُّود ، وأصبحوا لا تَرَى إلا مَسَاكِنَهُم ، ولا تجد إلا مَعَالمهم ، ولاَ تُحسّ منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نَبْساً ، فتزودوا عافاكم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تُفْلحُون ، جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه ، ويَعمل لحظّه وسَعادته ، ومَن يَسْتَمِعُ

---

(١) هذا الشيئ خالصة لك : أى خاصة .

(٢) المألكة : بضم اللام وتفتح : الرسالة .

(٣) المحمل : شقان على البعير فيهما العديلان ، والمراد أحترت عليهم .

(٤) الكلكل : الصد .

الْقَولَ فيتبع أَحْسَنَهُ ، أولئك الّذينَ هَدَاهُم اللّهُ ، وَأُولئكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَاب إن أحسن قصَص المؤمنين ، وأبلغ مواعظ المتقين ، كتاب الله ، الزكية آياتُه ، الواضحةَ بيناتُه ، فإذا تُلِى عليكم فأنْصِتُوا له ، وأسمعُوا لعلّكم تُفْلِحُون ، أعوذ بالله القوى ، من الشيطان الْغوىّ، إن الله هو السميع العليم ، قَلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ ، اللّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ، ثم قال :

نفعنا الله وَإياكم بالكتاب الحكيم ، وَالوحى المبين ، وَأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم [٤] .

وفى مفترق الطرق بين الأساليب الخطابية والكتابية يطرح عبد الحميد الكاتب صورة جديدة من فنون الخطابة ، صحيح أنه قد سبق إليه فى باب الوصايا ، ولكنه فتح باباً جديداً أمام الكتاب فى أن يستعينوا بضروب من الثقافات متعددة المصادر بين علوم الأوائل والعلوم المنقولة من قبل الأعاجم ، وإذا بالخطبة تتحول إلى ركام من الوصايا تغلب عليها - أيضاً - طبيعة الصنعة الأموية التى رآها كبار الكتاب وسيلة الكاتب لأن يحتل موقعه من ديوان الرسائل ، ومن هنا تحولت الخطبة إلى منعطف جديد فى مادة الصياغة ومناهجها مما يحسن معه قراءة وصية عبد الحميد الكاتب .

« أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ، فإن الله عزوجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسَلين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرَّمين أصنافاً ، وإن كانوا فى الحقيقة سَواءَ ، وصرفهم فى صنوف الصناعات ، وَضُروب المحاولات ، إلى أسباب مَعَايشهم ، وأبواب أرزاقهم ، فَجعلكم معشَرَ الكُتَّاب فى أشرف الجهات ، أهلَ الأدب والمُروءةِ والعلم وَالرّواية ، بكم تنتظم للخلافة محاسِنُها وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم بُصْلِح الله للخلق سلطانَهم ، وتعمرُ بلادهم ، لا يستغنى لتلكُ عنكم ، ولا يوجَد كاف إلا منكم ، فموقعكم من الملوك مَوْقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارِهم التى بها يُبْصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يَبطِشون ، فأمتعكم الله بما خصّكم من فضل صناعتكم ، ولا نزَع عنكم ما أضْفاه [١] من النعمة عليكم .

---

(١) أسبغه .

وليس أحد أحوجَ إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكُتّاب ، إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسهِ ، ويحتاج منهُ صاحبُه الذى يثقُ به فى مُهِمّات أموره ، أن يكون حليماً فى موضع الحِلم ، فهيماً فى موضع الحُكم ، مقداماً فى موضع الإقدام ، مُحجاماً فى موضع الإحجام ، مُؤْثِراً للعَفاف ، والعدل والإنصاف ، كَتُوماً للأسرار ، وَفيًّا عند الشدائِد ، عالماً بما يأتى من النوازل ، يضع الأمور مواضِعَهَا ، وَالطَّوارق أماكنها ، وقد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكَمَهُ ، فإن لم يُحْكِمه ، أخذ منهُ بمقدار يكتفى به ، يعرِف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يَرِد عليهِ ، قبل ورُودِه ، وعاقبةَ ما يصدُر عنهُ قبل صُدوره ، فيُعِدُّ لكل أمر عُدَّته وعَتَادَه [1] ويهيّئ لكل وجهٍ هيئته وعادتَه، فتنافسوا ، يا معشر الكتاب ، فى صنوف الآداب ، وتفقهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب اللهَ عزوجلَ والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثِقاف [2] ألسنتكم ، ثم أجيدُوا الخطَّ، فإنه حِليةُ كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبَها وَمعانيَها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وَسِيَرها ، فإن ذلك مُعِينٌ لكم على ما تسمو إليه هِمَتكم ، ولا تضيعوا النظر فى الحساب ، فإنه قِوام كُتاب الخَراج ، وارغَبوا بأنفسكم عن المطامع سَنِيها [3] ، ودنيِّها، وَسَفَسافِ [4] الأمور ومحاقرها ، ، فإنها مَذلةٌ للرِّقاب ، مَفْسَدَةٌ للكتَّاب ، ونزهوا صناعتكم عن الدَّناءات ، واربأوا [5] بأنفسكم عن السعاية وَالنَّميمة ، وما فيهِ أهل الجهالات ، وَإياكم وَالكِبْرَ والصَّلَفَ وَالعظمة ، فإنها عداوَة مجتلبة من غير إحْنَة ، وَتحابُّوا فى الله عزَّ وجلَّ فى صناعتكم ، وتواصَوا عليها بالذى هو أليقُ بأهل الفضل والعدل وَالنُّبل من سَلَفكم .

وإن نَبَا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسُوه ، حتى يرجع إليه حاله ، وَيَثُوب [6] إليهِ أمرهُ ، وإن أقعد أحدكم الكِبرُ عن مَكبَه ولقاء إخوانه ، فزُوروه وعظِّموه وشاوروه واستظهِروا [7] بفَضْل تجربته ، وقِدَم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من

(١) العتاد : العدة .
(٢) الثقاف فى الأصل : ما تستوى به الرماح .
(٣) رفيعها .
(٤) الردىء من كل شىء .
(٥) ربأ : علا وارتفع
(٦) يثوب : يرجع .
(٧) تقووا .

اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحفظَ منهُ على ولده وأخيه ، فإن عَرَضَتْ فى الشُّغل مَحْمَدة ، فلا يُضيفها إلا إلى صاحبه ، وإن عَرضت مَذَمة ، فليحملْها هو من دونه، وليحذر السَّقطة والزَّلة ، والمَلل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب . أسرعُ منهُ إلى القرَاء ، وهو لكم أفسد منهُ لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل ، يَبْذل له من نفسه ما يجب عليه من حقّه ، فواجبٌ عليه أن يعتقد له من وفائه ، وشكره ، واحتماله ، وصَبره ، ونصيحته، وكتمان سره ، وتدبير أمره ، ما هو حَزاءٌ لحقه ، ويصدّق ذلك بفعله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا ذلكم وفقكم اللّه من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحِرمان والمواساة والإحسان ، والسَّرَّاء والضَّرَّاء فنعمت الشيمة هذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة فإذا وُلّىَ الرجل منكم ، أو صُيِّر إليه من أمر خلق اللّه وعياله أمرٌ ، فليراقب اللّه عزوجل ، وليُؤْثِرْ طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم مُنْصِفاً ، فإن الخلق عيال اللّه ، وأحبُّهم إليهُ أرفقُهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مُكْرِماً وللفَىْء موفرًا، وللرعية متألفاً وعن إيذائهم متخففاً وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفى سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقاً وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه فإذا عرف حَسَنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحَسَن ، واحتال لصَرْفه عما يهواه من القبيح ، بألطف حيلة، وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمُوحاً [1] لم يَهِجْها إذا ركبها ، وإن كانت شبُوباً [2] اتّقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُوداً توقّاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حَرُوناً قَمَعَ برِفقٍ هواها فى طريقها ، فإن استمرتْ عطفَها يسيراً فيسلس له قيادُها ، وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساس الناس وعاملهم، وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحَاوره من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم أَوَده، من سائس البهيمة التى لا تُحير [3] جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ،

(١) رمحه الفرس كمنع : رفسه .
(٢) شب الفرس كضرب ونصر : رفع يديه.
(٣) لا ترد .

إلا بقدر ما يُصَيرها إليه صاحبُها الراكب عليها ؛ ألا فامعنوا رحمكم الله فى النظر ، وَأَعْمِلوا فيه ما أمكنكم من الرويّة والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة ، والاستثقال وَالجَفوة ، ويَصير منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ، إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزنّ الرجل منكم - في هيئة مجلسه ، ومَلبَسه ، ومركبه ، ومطعَمه ، ومشرَبه ، وبِنائه [1] وخَدَمه وغير ذلك من فنون أمره - قدر أمره - قدرَ حقّه ، فإنكم - مع ما فضلّكم اللهُ به من شرف صنعتكم - خَدَمَةٌ لا تُحمَلون في خدمتكم على التقصير ، وحَفَظَة لا تُحتمل منكم أفعال التصنييع والتبذير واستعينوا علي عَفافكم بالقَصْد في كل ماذكرته لكم ، وقَصَصتْه عليكم ، واحْذَرُوا متالِف السَّرَف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يُعْقِبان الفقر ، ويُذِلاّن الرقاب ، ويَفضحان أهلهما ، ولا سيما الكتاب ، وأرباب الآداب ، وللأمور أشباة وبعضُها دليل علي بعض ، فاستدلوا على مُؤْتَنَفَ [2] أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحَها مَحَجَّةً ، وأصدقها حُجَّةً وأحمدها عاقبة .

واعلموا أن التدبير آفةً مُتلِفة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنقاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم فى مجلس قصدَ الكافى من منطقِه ، وليوجز فى ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمَجَامع حُججَه ، فإن ذلك مصلَحة لفعله ، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره، وَليضرَع إلى الله فى صله وفيقه ، وإمداده بتسديده مخافةَ وقوعه فى الغلط المُضِر ببدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظنّ منكم ظان ، أو قال قائل : إن الذى برز من جميل صنعته ، وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرَّض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله عزوجل إلى نفسه ، فيصيرَ منها إلى غير كاف ، وذلك على من تأمَّله غيرُ خاف.

ولا يقُل أحد منكم إنه أبْصَرُ بالأمور ، وأحملُ لِعبْء التدبير من مُرَافقه فى صناعته ومُصَاحِبه فى خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رَمَى بالعُجْب وراء ظهره ورأى أن صاحبه أعقَل منه ، وأحمَد فى طريقته ، وعلى كل واحد من الفريقين أن

(١) بني علي أهله ، وبها بناء ، وابتني : زفها .

(٢) مبتدأ .

يَعْرِف فضل نعم الله جل ثناؤه ، من غير اغترار برأيه ، ولا تزكيَةٍ لنفسه ، ولا تكاثرٍ على أخيه أو نظيره ، وصاحبه وعشيره ، وحمدُ الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع والتذلُّل لعزته ، والتحدث بنعمته .

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثَلُ : « مَنْ يَلْزم النُّصيحة يَلْزَمه العمل » وهو جوهر هذا الكتاب وغُرة كلامه ، بعذ الذى فيه من ذكْرِ الله عزوجل ؛ فلذلك جعلته آخره ، وتممته به ، تولأنا الله وإياكم يا معشر الطَّلبة والكتبَة ، بما يتولى به مَن سبق علمُه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » [٥] .

(٣) لدى القادة

والخطبة هنا تدور فى حقل متميز من حقول القيادات الأموية ، فهى تصدر عن قائد من قادة الفتوحات يتهيأ لغزو طخارستان سنة ٨٦هـ ويحاول فى خطبته أن يستحث جنده على الاستمرار فى الجهاد ، دون تخاذل منهم أو تراجع ، ومن ثم كان تميز خطبته عن خطابة زياد أو الحجاج ، فهو بصدد موقف مختلف يتحاور فيه مع جنده ، يستمد من المادة القرآنية ما يدفعهم دفعاً إلى التزاحم على حياض الموت ، حيث قال : « إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وَقْماً [١] وعدنبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ، ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب ، وأعظم الذخر عنده ، فقال : (ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولانصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطنا يغيظ الكفار ولاينالون من عدو نَيْلا إلاَ كُتب لهم به عمل صالح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلاَ كُتب لهم ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون) ثم أخبر عمنٌ قتل فى سبيله أنه حى مرزوق فقال : (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون) فتنجزوا موعود ربكم ، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر ، وأمضىَ ألم ، وإياكم والهُوَيْنَى » (٥) .

---

(١) وقمه : قهره وأذله .

ومن ثم نجد المعجم الإسلامى أساساً واضحاً يكمن فى صياغة الخطبة التى وزعها الخطيب بين :

١ - تقديم دينى يمهد من خلاله جمهوره ليتلقى مقولاته ، فيستوقفه عند ما وعد به الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم من النصر بحديث صادق وكتاب ناطق . فهو يشير إلى مصدر الوعد الحق من واقع النص القرآنى ليجىء بالاقتباس المباشر من الآيات القرآنية الدالة على هذا السياق بالتحديد ، ومن الواضح هنا أنه يستوحى من الموقف أساسه وأصله ، من خلال ما استوقفه من وعد الله لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بالفتح والنصر بعد الجهاد والصبر .

٢ - ثم يتدرج منطقياً إلى دور المجاهدين الذين شغلهم أمر العقيدة فكانوا جندا لله ورسوله ، وكان لهم من الوعد الحق أيضاً أحسن الثواب والذخر عند ربهم ، وهنا يستشهد الخطيب بالآية القرآنية الدالة على صدق مقولاته ، فيطيل فى اقتباس الآية التى توصف سلوك أولئك الشهداء ممن استحبوا الجهاد فى سبيل الله على كل ما سواه من إغراء الدنيا وزخرفها ، وهم يعرفون صعوبة المعترك ويدركون مشقات الطريق الذى اختاروه ، فكان عليهم أن يصبروا ويتحملوا ، وكان عليهم أن يلاقوا من الظمأ والنصب والرهق فى سبيل الله تعالى ، والنيل من عدوه وعدوهم ، والإنفاق فى سبيله ما يضمن لهم عند الله الثواب وطيب الجزاء .

٣ - ثم يرسم المشهد الثالث حول موقع الشهداء وما ضمنه لهم خالقهم من أجر فهم أحياء عند ربهم يرزقون ، لعله بذلك ينمى لديهم روح الإصرار على الموت واللحاق بهم دون إدبار أو تخاذل أو استعداد لفرار أو تراجع .

ويستوقفنا فى الخطبة عدة ملامح سار عليها الخطيب فى منطقة حواره مع جمهوره منها :

١ - ذلك الإيجاز الذى غلب عليها ، فليس ثمة مجال للإطالة ، ولا هناك ما يدعوا إلى الخوض فى تفاصيل أكثر من التى ركز عليها الخطيب عدسته ، فكانت الخطبه بهذا القياس شديدة الدلالة على موضوعها ، شديدة التعبير عنه صادقة فى صدورها عن الموقف ، واقعية فى اتساق إيقاعها مع إيقاعه .

٢ - أن منطق الخطبة يظل قريباً من عصر صدر الإسلام وكأنه يذكرنا بالمغازى الإسلامية

ومعارك التوحيدية مع الوثنية فى عصر رسول صلى الله عليه وسلم ؛ الأمر الذى شهد امتداداً طبيعياً عبر حركة الفتوحات الإسلامية مما وجدنا له نماذج فى وصايا الخليفة الأول رضى الله عنه لقياداته الحربية ، وهو ما استمر على عصر عمر إلى بقية تاريخ الخلافة الراشدة ، فكان موقف قتيبة مع جنده انعكاساً طيبا استهلمه من سيرة السلف الصالح حول منطق المجاهد الإسلامى بكل دوافعه ومناهجه ومفاهيمه، ومقومات جهاده ونتائجه المنتظرة منه .

٣ - أن الخطبة نأت عن حديث الفتن وصراعات الأحزاب التى شُغل بها خطباء العصر ، سواء منهم من كان ضد الخلافة الأموية ، أو من كان ضمن صفوف الخليفة يدفع عن حقه السياسى ، أو يتبنى نظرية النظام الحاكم ، أو يحاول التبرير لها ، فجاءت خطبةُ « قتيبة » بمنأى عن كل هذه الاتجاهات مما أكسبها سمتاً خاصاً ميَّزها عن خطباء جيله وارتدَّ بها إلى النموذج الخطابى القديم لدى المجاهد فى عصر صدر الإسلام .

٤ - أن الخطبة - بناء على هذا الطرح واستكمالاً له - صدرت عن المعجم الإسلامى الذى أكسبه الخطيب مذاقاً خاصاً حين تدرج به فى شكل مقنع لجمهوره بدءاً من وعد الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وانتقالاً إلى دعوته على استمرار الجهاد والإصرار على الخروج فى سبيل الله ، وتتويجاً بحواره حول أجور الشهداء ، وتصوير ما ينتظرهم عند ربهم من صور الثواب فى الآخرة ، وهو ما جعل الخطبة تفيض بالاقتباسات القرآنية الصريحة ، مما يؤكد - بدوره - جوهر الموقف الدينى للخطيب حين أن يزين كلامه أو يزيد من إقناع جمهوره من خلال الاقتباس من آيات القرآن الكريم .

٥ - أن مجال الخطبة لا يحتمل تصويراً ولا مجازاً ، ولا إغراقاً فى انتقاء لفظى ، ولا قصدا إلى صياغة جمالية مبهرة ، فالمطلوب هنا لا يتجاوز حدود الإقناع والحث على الاستمرار فى القتال ، والأمر لا يستوجب - بحال - صياغة جمالية أنيفة ولا تصويراً أو استغراقاً فى بديع ولا غيره من صور التحسين والتنميق ، ذلك أن الخطيب يرمى بخطبته أساساً إلى إقناع جمهوره بأجر الشهداء ، لا أن يدفعهم إلى تذوق جمالى لما ينتقيه من ألفاظ أو يرسمه من صور ومجازات .

ويظل من تجليات هذه الدراسة ماظهر من مراكز التحول فى الفن الخطابى سواء منه مابدا معلقا :

١ - بالخطيب نفسه من واقع حسه الانفعالى ، أو موقفه العقلى ، أو موقعه بين جمهوره، أو مادة ثقافته ومصادر فكره ، أو طبيعة معجمه ومستوى أدائه ، أو مقاييس الصدق التى يصدر عنها ، أو المطلوب الجدلى الذى يرمى إليه ، وجميعها أصابها التغاير بين العصرين بحكم تغاير الملابسات والظروف التاريخية التى صدر عنها خطيب كل عصر منهما .

٢ - بالجمهور ذاته من واقع ارتباطه بالخطيب ، وشوقه إلى التلقى ، والتقبل والاستماع والاستجابة والانصياع والطاعة ، أو من خلال الخوف والترقب والحذر والتفور والفزع، كأنه الفجوة تتسع كلما تعمَّق الخطيب خطبته ، وتزداد المسافة بين المبدع والمتلقى من واقع ذلك الكره والخوف .

٣ - بالموقف الخطابى المتحول بين العصرين ، بما يحمله من ذلك الانخراط فى زحام السياسة ، ومشكلات الحياة الحضارية ، وكثرة الفتن والثورات ، وتعدُّد النظريات وتباين الفرق والاتجاهات ، مما يزيد الموقف أمام الخطيب تعقيدا ، وهو مايحول علاقته بجمهوره إلى تلك اللغة العدوانية التى مرت بنا أطراف منها .

٤ - بالخطبة نفسها كفن توصيلى متعدد الجوانب ، والأطراف والمواقف ، فإذا بها تعكس لغة العصر ، وتصدر عن منطقه فى تدرج بأن من قياسات العفوية وتلقائية الأداء ، إلى محاولة تجاوز مراحل الإنهمام ، إلى تعمُّد الصنعة ، وإيثار الغموض، والاستغراق فى التعقيد ، بما يشى بكشف ضغوط الحياة العقلية على الخطيب ، ويحكى حرصه على التبارى فى استيعابها ، الصدور عنها .

٥ - بالمناخ العام الذى عاشه الخطيب وعايشه جمهوره ، وما أصاب هذا المناخ فى ظواهر متغيرة ، تغيرت معها الرؤى ، واتسعت لها المجالات ، وانقسمت إزاءها الآراء على غرار ماظهر من مناطق التخصص ، وتعدد الزوايا ، وكثرة الفروع الخطابية ، مما يعد سمة من سمات التحول مع العصر الأموى بخاصة .

٦ - بالموقف الخاص الذى يشهد على تحول الخطبة إلى فن مصنوع له أقطابه وزعماؤه ، مؤذنا بالدخول فى مرحلة من التعقيد على المستوى الرسمى ، خاصة حين التقى الفن

الخطابى مع الكتابى ، واشتد التنافس بين الكتاب والخطباء ، وعندئذ ظهرت المدارس التى تحكى جوانب من لغة الجدل التى ازدحمت بها البيئات الكلامية من ناحية ، والفرق الدينية ، والأحزاب السياسية من ناحية أخرى .

٧ - ولعل التدخل بين الكتابة والخطابة قد أسهم فى طرح إفراز ثقافى جديد ، مال أصحابها إلى مزيد من التعقيد منذ تطور فن الوصايا مبدا جامعاً بين مقاييس الصنعة لدى الخطيب والكاتب على السواء

هوامش الفصل الرابع

(١) الرواية لدى ابن عبدربه فى العقد الفريد ، وتراجع فى التعليق عليها دراسات فى الشعر الجاهلى للدكتور يوسف خليف .

(٢) يراجع عرض القضية تفصيلاً فى المرجع السابق .

(٣) مصدر الراسالة .

(٤) الآيات القرآنية مصادرها .

(٥) الآيات لقرآنية مصادرها .

(١) البيان والتبين ٦٨/٣ ، عيون الأخبار ٣٤٤/٢ شرح ابن أبى الحديد ٤٦٩/١ ، جمهرة خطب العرب ٤٨٥/٢ .

(٢) ضمن دالية أبى العلاء فى لزومياته ومطلعها : غير مُجد فى ملتى واعتقادى .. نوح باك ولاترغم شاد .

(٣) سورة يس ٧٧ - ٧٩ .

(٤) مفتاح الأفكار ٢٧٠ ، جمهرة خطيب العرب ١١٥/٢ - ١١٦ .

والكاتب هو :

* هو أبو حذيفة واصل بن عطاء شيخ المعتزلين ، وأحد الأئمة المتكلمين ، وكان يلثغ بالراء ، فيجعلها غيناً ، فاستطاع بمهارته أن يخلص منها كلامه ، خطب يوماً عند عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز وإلى العراق سنة ١٢٦ شبيب بن شيبة ، وخالد بن صفوان ، والفضل بن عيسى ، ثم قفاهم واصل ، فارتجل هذه الخطبة وعراها من حرف الراء ، وأبداع فى القول . ففضل عبدالله خطبة واصل وضوعف فى قسم الصلات له الشكد (والشكد الضم : العطاء) وتوفى واصل سنة ١٣١ هـ .

(٥) زهر الآداب ١٨٠/٢ ، صبح الأعشى ١٨٥/١ ، جمهرة خطب العرب ١٢١/٢ - ١٢٣ ومعروفة مكانة عبدالحميد بن يحيى العامرى كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ، قتله السفاح سنة ١٣٢ هـ .



خاتمة

وفى ختام الحوار حول طبيعة الخطابة وتطورها بين العصرين يمكن أن تستوقفنا عدة نتائج حققتها هذه القراءة لبعض من نماذج الإبداع فى كليهما :

١ - من حيث الماهية أو الطبيعة النوعية للفن الخطابى يتضح لنا ما أصابه من تحول واضح يبدأ من انحساره فى المسار الدينى فى عصر المبعث والراشدين ليشق مسالك جديدة بدأت تطفو على سطح الحياة العربية مع التحول الفكرى والسياسى فى عصر بنى أمية ، ذلك أنا رأينا خطابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تستمد مادتها من النصَّيْنْ المقدسين القرآن الكريم وأحاديثه عليه السلام وهو ما يتسق مع حياة المجتمع الإسلامى عبادة وتشريعاً ، فالخطيب ينطلق من أصول دينية بحتة ويستهدف من خطبته ترسيخ المبادئ والقيم الدينية ويشرع للمسلمين خطوط حياتهم الكبرى وأدق تفاصيلها من خلال نفس المنطلقات ، ومن ثم كان رحلة الخطبة الإسلامية بين الثوابت والأصول التى رسخها عليه السلام إلى البحث عن استمرار نفس المثال واحتذاء نفس القدوة لدى جيل الصحابة ، فكان المسار متشابهاً من أوله إلى آخره إلا ما جاء رهناً بظروف طرأت على الحياة فى تولى أمر الخلافة أو الخروج لغزوة وجميعها لم تخرج بحال على المنهج الإسلامى الذى طرحته خطبته عليه السلام فى حجة الوداع .

٢ - من حيث الأداة يتكشف لنا ذلك التواصل بين النموذج المثال وبين النمط السائد فى عصر بنى أمية ، صحيح أن فن الكلمة يظل القاسم المشترك هنا وهناك ولكن الذى لا يخفى أن ثمة تطوراً بارزاً أصاب طبيعة هذا الفن عبر رحلته بين جيلين واختلاف صورة عصرين سياسيين ..

فإذا بالخطابة تتجاوز مرحلة التوحد والالتقاء إلى مرحلة القسمة المتخصصة إلى مستويات سياسية واضحة الحدود والمعالم وأخرى دينية شهدت تحولاً عما كان لدى الجيل السابق ، وثالثة ترتبط بالمحافل الكبار التى شهدتها البيئة الجديدة ، ومن هنا قارب

الأداء النثرى الأداء الشعرى فى نفس البيئة فصدرت - فى مجملها - عن ظروف متشابهة وخلفيات فكرية واحدة فكان الشاعر والخطيب على قدم المساواة فى التزامه الحزبى وتبنى قضايا فرقته أو حتى فى إعلان عدائه ونفوره من مبادئ الأحزاب الأخرى .

على أن هذه القسمة لم تكن السمة الوحيدة التى أصابت هذا الفن ، وإن ظلت بمثابة علامة كبرى حول إيقاعات الحياة الجديدة وملابساتها السياسية ، ولكن ثمة سمات أخرى ارتبطت بها على مستوى الأداء الفنى وتجاوز مرحلة العفوية والتلقائية فى الأداء أو - على الأقل - عدم العمد إلى الإسراف فى الصنعة أو الانشغال عن الجمهور بتحكيك فن القول والإبداع فيه ، تجاوزت هذا المستوى لتتحول الخطبة إلى صناعة تصويرية تزدحم بالأفكار وتتراكم فيها الصور وتبرز الصنعة اللفظية أساساً للتبارى والتنافس وكأنها الرغبة فى تجاوز مادة السلف الصالح وإن ظل الشكل - فى معظمه - حريصاً على ذلك المنهج القديم من حيث التقديم والخواتيم بصرف النظر عن الاستثناء الذى رأيناه فى الخطبة البتراء .

ومع تحول مكانة الخطيب إلى رجل سياسة أو إلى وظيفة رسمية لدى البلاط تتحول صور المعالجة إلى باب من أبواب الصنعة الفنية المتعمدة التى تقتحم أبواب التصوير وأيضاً أبواب البديع وإذا بالخطيب يعد نفسه قبل مواجهة جمهوره ، وإذا بهذا الإعداد يظل - بدوره - دالاً على هذا التقارب الواضح بين منطقتى الشعر والخطابة على مدار صراعات الشعراء والخطباء عبر هذا العصر .

٣ - وعلى مستوى التوظيف ظهر التحدى واضحاً جلياً منذ ظهور ذلك التحلل الذى أصاب جوهر علاقة الخطيب بجمهوره ، فبدلاً من إيجابية هذه العلاقة بما اتسمت به من العمق والحرص والإشفاق والخوف تحولت مع الحياة الجديدة إلى لغة العنف والقسوة واتسعت فجوة العداء بين الخطيب وجمهوره خاصة لدى خطباء العصر من كبار القادة الذين شغلهم أمر الثوار وأصحاب الفتن ومواطن القلق ، فكانوا ساسة من طرز خاصة ظهرت لديهم سمات خطابية جديدة يعكسها هذا التوظيف المتميز حين ينطق الخطيب بلغة التهديد والوعيد أو النصح المشوب بأى من هذه الجوانب ، فليس ثمة ما كان من ذلك الدأب على التقارب النفسى بين الخطيب وجمهوره ، الأمر الذى يرتد - بالدرجة الأولى - إلى زحام البيئة الأموية بصور فى الفتن السياسية التى تمخضت عن مولد الفرق السياسية بين خوارج وشيعة وزبيرين وأمويين ، وكذا صور الفتن الدينية التى أفرزت الجبرية

والقدرية والمرجئة والمعتزلة ، وبدت القسمة مطروحة على ساحة الخطابة فى إطار من هذا التوظيف السياسى الجديد لها .

على أننا لا نزعم أن النمط السياسى كان وحده فى هذا المجال إذا ما احتوينا خطباء العصر على المستوى الدينى ممن حاولوا التأصيل لفلسفة الزهد أو شغلتهم القضايا الجدلية حول مكانة المؤمن الفاسق على نحو ما أثاره الحسن البصرى فى مجالسه و ما كان من اعتزال واصل بن عطاء له ، فإذا بالخطبة الدينية تشهد هذ التحول وتبدأ انطلاقتها الجديدة فى ظل اللغة الجدلية المرتبطة بأى من هذ الفرق وهو ما يمكن تلمسه فى دراسات أخرى طرقته طويلاً وأفاضت فى تناوله على نحو ما جمعه كتاب الفن ومذاهبه فى النثر العربى .

ومن هذا المنطلق كان تطور الفن الخطابى حتى فى الإطار الدينى ذاته فإذا بكل فرقة توظف ألسنة خطبائها فى تبنى قضاياها ومحاولة تفنيد مزاعم الفرق المعارضة لها ، وبذا تحول الفن الخطابى إلى هذا المنعطف الدينى الجديد الذى يسمح للخطيب بتجاوز الثوابت التى ثقفها من مادة العصر السابق ليضيف إليها ذلك المتحول الذى أفرزته الحياة الجديدة بكل ملابساتها .

وإذا كان للنمط الدينى والسياسى هذه الاستمرارية فإن الخطابة الحفلية تظل فى منزلة بين المنزلتين ، كما تظل لها دلالتها على مواكبة الأحداث صغيرها وكبيرها ، وهى علاقة دالة بطبيعتها على اتساق الخطبة مع مقومات الحياة الجديدة استجابة لها ومواكبة لأحداثها .



مصادر ومراجع

١ - ابن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ت د. أحمد الحوفى ، د . بدوى طبانة ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢ - ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار الكتب - بيروت ١٩٨٧ .

٣ - ابن قتيبة : عيون الأخبار ، دار الكتب - بيروت ١٩٨٦ .

٤ - أبو على القالى : الأمالى ، دار الجيل - بيروت ١٩٨٧ .

٥ - البغدادى : خزانة الأدب (ت عبدالسلام هارون) مصر ١٩٦٧ .

٦ - الجاحظ : البيان والتبيين ، دار إحياء التراث - بيروت ١٩٦٨ .

٧ - الحصرى : زهر الآداب وثمر الألباب (ت محيى الدين عبدالحميد) بيروت ١٩٧٢ .

٨ - الطبرى : تاريخ الرسل والملوك - المعارف ١٩٦٨ .

٩ - المبرد : الكامل فى اللغة والأدب ، مصر ١٣٢٨ هـ ومن المصادر الكبرى التى اعتمدت عليها الدراسة ماورد من خطب ضمن كتاب « جمهرة خطب العرب فى عصور العربية الزاهرة » لأحمد ذكى صفوت ، دار الحداثة / مصر ١٩٨٥ .

مراجع :

١ - أبو الحسن الندوى : السيرة النبوية ، بيروت ١٩٧٣ .

٢ - أنيس المقدس : تطور الأساليب النثرية ، بيروت ١٩٣٥ .

٣ - د . ذكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى ، القاهرة ١٩٣٤ .

٤ - د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، المعارف ١٩٦٠ .

٥ - د . طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، المعارف ١٩٨٣ .

٦ - د . كامل سلامة الدقس : من روائع الأدب النبوى ، دار الشروق - جدة ١٩٧٥ .

٧ - كمال اليازجى : الأساليب الأدبية فى النثر العربى القديم ، دار الجيل ١٩٨٦ .

٨ - د . محمد عطية الإبراشى : عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، دار القلم ، مصر .

٩ - د . وداد القاضى : مختارات من النثر العربى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨٣ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٣٢١٢ / ٩٦

I. S. B. N. 977-215-191-X